

أصحاب الأثر | الطريق إلى القدس

نور الدين زنكي



نور الدين زكي

الطريق إلى القدس

أصحاب الأثر

الإهداء

إلى من يرى ثمرته بعيدة، فيضع اليوم حجراً صالحاً في طريقها؛ وإلى
من يحمل أمانة الناس، فيعرف أن العدل يبدأ حيث يستطيع
القوي أن يستثني نفسه.

المقدمة

لم يدخل نور الدين القدس.

مات والمدينة التي أحب أن يحررها ما تزال في أيدي الصليبيين. وبعد وفاته بسنوات، وصل إليها منبر أمر بصنعه في حلب. دخل الخشب المنقوش المسجد الأقصى، وغاب الرجل الذي أعده لذلك اليوم. وبين الأمر بصنعه ونصبه في موضعه قصة أوسع من قطعة فنية: قصة قوة كانت تتكون، ومدن يتغير ميزانها، وعلماء وقادة وصناع، وانتصارات لم تكن آخر الطريق، وهزائم لم تُسقط صاحبه.¹

قد نعرف نور الدين من لقب «الملك العادل»، وقد تذكره عند ذكر صلاح الدين. لكن اللقب لا يخبرنا كيف كان العدل يعمل، واسم القائد الذي جاء بعده لا يكشف وحده عما صنع السابق. كان نور الدين صاحب سلطان وجيش، وكانت له أيضاً زوجة وأسرة، ومال يحاسب نفسه في التصرف فيه، وعلماء يسمع منهم، وقضاة يقف معهم موقف الخصم. بنى حصوناً، وبنى

١ — نشر وثيقة منبر نور الدين، وثيقة 39، نقش المنبر المؤرخ سنة 564هـ وخبر نقله إلى القدس.

أماكن يطلب فيها المريض العلاج وطالب العلم المعرفة. ولم يكن شيء من ذلك يجري في عالم هادئ.²

هذه صحبة لرجل في عالمه. نبدأ حيث يُظهره موقف، ثم نعود إلى الطريق الذي حمّله إليه. نتقدم معه من انقسام ميراث أبيه إلى اتساع دولته، ومن حلب إلى دمشق، ومن المعارك في الشام إلى الحملات على مصر. ونقف عند البقيعة، حيث خسر المسلمون ونجا قائدهم؛ وعند حارم، حيث كان الانتصار ثمرة جمع رجال من بلاد شتى؛ وعند مصر، حيث امتزج التعاون بتنافس السلطة. لا نضع كل ذلك في صورة انتصار متصل، ولا نجعل ما وقع بعده نتيجة حتمية لما فعله.³

تمنحنا الأخبار صورة قوية عن أواسط حياته وآخرها، وتقل التفاصيل في طفولته وداخل بيته. لهذا لا نخترع للصبي مجلساً أو حواراً، ولا نعوض الصمت التاريخي بمشهد جميل. وإذا تنازع الخبر تفسيراً، أو كانت الرواية شهادة إعجاب، حفظنا الفرق بين ما حدث وما فهمه صاحبه. ليست محبة الرجل سبباً لإخفاء ما يحتاج إلى نظر؛ إنها سبب لأن نعرفه معرفة أصدق.

٢ — الذهبي، سير أعلام النبلاء؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان؛ ترجمة نور الدين؛ وفي السير نقل شهادة ابن عسّاك.

٣ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث 558-564هـ، أخبار البقيعة وحارم والحملات المصرية.

وفي آخر الصفحة قسم عملي مستقل. لا يحول حياة سلطان في القرن السادس الهجري إلى وصفة جاهزة لحياتنا؛ بل يعين القارئ على اختيار معنى يناسب مسؤوليته: حفظ الأمانة، وإصلاح الظلم، والاستعداد للعمل، ومساندة أهل الكفاية، والنهوض بعد التعثر. أما تفاصيل التاريخ فتبقى تاريخاً، وأما الخطوات المعاصرة فتظل اجتهاداً في الانتفاع به، تقاس بنتيجتها وحقوق الناس فيها.

نقرأ نور الدين لأن في حياته ما يستحق أن يُعرف قبل أن يُمدح. ونقرأه أيضاً لتتعلم كيف يعمل الرجل لأمر قد لا يرى تمامه: لا ينتظر الخاتمة حتى يبدأ، ولا يعفيه شرف المقصد من صدق الوسيلة.

فهرس الكتاب

- 8 1. منبر ينتظر
- 10 2. ابن البيت الأتابكي
- 13 3. الخاتم وحلب
- 16 الفصل الرابع الرها مرتان
- 18 الفصل الخامس مدينة لا يملكها
- 23 الفصل السادس يوم إنب وما بعده
- 28 الفصل السابع الباب الشرقي
- 33 الفصل الثامن حين يكون السلطان خصماً
- 38 الفصل التاسع ما في يده وما له
- 43 الفصل العاشر باب للمريض
- 47 الفصل الحادي عشر السلطان بين الكتب والعلماء
- 51 الفصل الثاني عشر البيت والصلاة
- 55 الفصل الثالث عشر من أيامه
- 59 الفصل الرابع عشر حين تهتز الأرض
- 63 الفصل الخامس عشر البقيعة
- 67 الفصل السادس عشر الذين جاءوا إلى حارم
- 72 الفصل السابع عشر مصر التي طلبها شاور
- 76 الفصل الثامن عشر الإسكندرية لا تنام على نصر البابين
- 81 الفصل التاسع عشر النار والطريق الثالث

86	الفصل العشرون الاسم الذي قُري على المنبر
90	الفصل الحادي والعشرون نور الدين وصلاح الدين
94	الفصل الثاني والعشرون الجيران لا يجتمعون في راية واحدة
99	الفصل الثالث والعشرون آخر عيد
103	الفصل الرابع والعشرون الدولة بعد صاحبها
107	الفصل الخامس والعشرون يصل المنبر
109	الفصل السادس والعشرون الرجل الذي يبقى في الصورة
112	باب: الأقوال والوصايا المأثورة
124	الفصل السابع والعشرون ستة أعمال يستطيعها القارئ
133	الفصل الثامن والعشرون تجربة لأسبوع واحد
139	الملحق الأول خط الزمن
143	الملحق الثاني أسماء ومصطلحات
147	الملحق الثالث قراءة المصادر
149	مصادر الحواشي
177	المراجع المعتمدة

الفصل الأول منبر ينتظر

أمر نور الدين أن يُصنع في حلب منبر للمسجد الأقصى، والقدس يومئذ في أيدي الصليبيين.

كان ذلك سنة أربع وستين وخمسمائة. جعل للمدينة التي يريد تحريرها عملاً يبدأ به من حيث يقف: منبراً يعدّ لمسجدها، قبل أن يستطيع الوصول إليها. حفظ النقش اسمه وتاريخ الصناعة، وبقي المنبر في حلب ينتظر يوم نقله.⁴

وللوصول إلى القدس طريق طويل. أمامه حصون الصليبيين، ومدن المسلمين المتفرقة، وجيش يحتاج إلى الرجال والمال. وقد مضى نور الدين في هذا الطريق أعواماً؛ دخل دمشق فاجتمع له معها سلطان حلب، وخاض حروب الشام، وأرسل شيركوه إلى مصر. وفي العام الذي يؤرّخ له نقش المنبر تولى صلاح الدين الوزارة هناك، بعد وفاة عمه شيركوه. اتسع ميدان العمل، وبقيت القدس هي الغاية الأبعد.⁵

٤ — نشر وثيقة منبر نور الدين؛ وثيقة 39، نقش المنبر المؤرخ سنة 564هـ وخبر نقله إلى القدس.

٥ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث 549-564هـ، ضم دمشق وحارم ومصر.

لهذا يأخذ المنبر مكانه في القصة. رأى نور الدين موضعاً للعمل وراء حدود ملكه، فبدأ يعد له ما استطاع. صار للهدف أثر في الحاضر؛ صنعة تُنجز، ومورد يُبدل، وعمل يُحفظ لليوم الذي يحتاج إليه. وفي ذلك ما يقرب الرجل منا: قد تبعد الغاية، ويكون أول ما نقدر عليه جزءاً صغيراً من الطريق، لكنه جزء نستطيع أن نبدأه.

ثم مات نور الدين، والقدس لم تفتح.

بقي المنبر بعده، ومضى صلاح الدين في حروب جديدة حتى جاء يوم حطين، ثم فتح القدس سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة. فأمر بحمل المنبر من حلب إلى المسجد الأقصى. وصل العمل الذي بدأه نور الدين إلى الموضع الذي أُعد له، بعد تسع عشرة سنة من التاريخ المنقوش عليه.⁶

لم يشهد صاحبه ذلك اليوم، لكن عمله كان حاضراً فيه. عرف وجهته، وأعد لها ما استطاع، وترك لمن جاء بعده عملاً ينتفع به. ولنعد إلى بدايته: قُتل أبوه عند قلعة جعبر، فأخذ خاتمه ومضى إلى حلب. من ذلك الطريق خرج صاحب المنبر.

٦ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث سنة 583هـ، ذكر فتح البيت المقدس.

الفصل الثاني ابن البيت الأتابكي

محمود بن زنكي: ذلك اسمه قبل أن يغلب عليه لقب نور الدين. وُلد في شوال سنة إحدى عشرة وخمسمائة، سنة 1118م، في بيت عرف الولاية والحرب. كان أبوه عماد الدين، وكان جده آق سنقر قد تولى حلب ثم قُتل في صراع الأمراء.⁷

دخل محمود الدنيا وأبوه ما يزال يصعد في خدمة السلاطين. ثم تولى زنكي الموصل، واتصل ملكه بالشام، فصارت حلب والموصل من أهم مراكز دولته. وكان «الأتابك» لقباً أصله رعاية ابن السلطان وتربيته؛ اتسعت قوة بعض أصحاب هذه الوظيفة حتى صار لهم سلطان على المدن والجيوش.⁸

في كفالة أبيه تعلم محمود الفروسية، وتصفه أخبار ترجمته بحسن الرمي وقوة الفارس. وسيحتاج إلى ذلك حين يصبح قائداً؛ فالقتال في عصره قرب من الخطر، ونجاة الجيش قد تتوقف على قائد يجمع رجاله بعد انكسارهم.⁹

كانت وراء الفرسان حياة دولة واسعة. الجند ينتظرون عطاءهم، والمدن تحتاج إلى الحاميات والمخزون، والطرق تحمل الرسائل

٧، ٨، ٩ — الذهبي، سير أعلام النبلاء؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان؛ ترجمة نور الدين؛ وفي السير نقل شهادة ابن عساكر.

والمؤمن. وفي الديوان كُتِب، وفي القلاع أمراء، وفي مجالس الحكم أصحاب رأي. تعلّقت هذه الأعمال بسلطان زنكي، لكنها صارت بعد موته جزءاً مما يجب على الأبناء أن يحفظوه.¹⁰

ومحمود واحد من أبناء عدة. أخوه الأكبر سيف الدين غازي سيأخذ الموصل، ثم يخلفه فيها قطب الدين مودود. وستدخل أسماء أبناء الإخوة في سيرة نور الدين؛ يأتي بعضهم بعسكره لينصره، ويقف بعضهم على الطرف الآخر في نزاع على الولاية. كانت الأسرة عوناً وميداناً للاختلاف، وظل أثرها حاضراً كلما اتسع ملكه.¹¹

أما أبوه فقد هزّ سلطان الصليبيين بفتح الرها سنة تسع وثلاثين وخمسمائة. وقعت المدينة التي استقر فيها حكمهم طويلاً في يد زنكي، وصار لهذا الفتح أثر يتجاوز أسوارها. ورث نور الدين اسماً يخشاه الخصوم، ومدناً ورجالاً يعرفون قدر أبيه.¹²

لكن الميراث سيختبر سريعاً. فما حفظه الأب بقوته لا يبقى للأبناء بمجرد انتسابهم إليه. وفي الموصل وحلب مصالح تحتاج إلى من

١٠ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن خلكان، وفیات الأعيان؛ حوادث سنة 541هـ، ذكر مقتل زنكي وملك ولديه؛ وفیات الأعيان، ترجمة 715.

١١ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث سنة 544هـ، وفاة سيف الدين وملك قطب الدين وخبر سنجار.

١٢ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث سنة 539هـ، فتح الرها؛ وحوادث 541هـ، مقتل زنكي وسيرته.

يجمعها، وعلى أطرافهما خصوم يرون في موت الأمير فرصة
لاسترداد ما فقدوا.

تصف التراجم نور الدين طويلاً أسمر، له هيبة، وتجمع شهادة ابن
عساكر المنقولة عنه بين هذه الهيبة ولطافة معاملته. وسيظهر لنا
وجه الرجل في مجالسه كما يظهر في ميادين القتال؛ يأتيه عالم
فيسمع منه، ويخاصمه رجل فيدخل معه مجلس الحكم.¹³

حين وصل إليه سلطان حلب كان في أواخر العشرينيات. حمل
خبر وفاة أبيه معه، ووجد أمامه مدينة تنتظر حاكماً، ودولة تبحث
عن تماسكها، وأعداء يتربصون بحدودها. هنا انتهى زمن الانتظار،
وبدأت الأفعال التي سيعرف بها محمود بن زنكي.

١٣ — الذهبي، سير أعلام النبلاء؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان؛ ترجمة نور الدين؛ وفي السير
نقل شهادة ابن عساكر.

الفصل الثالث الخاتم وحلب

قُتل زنكي عند قلعة جعبر، والقلعة لم تقع في يده.

كان يحاصرها في ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، سنة 1146م. انقطع الحصار بمقتل صاحبه، ووجد الجيش نفسه أمام سؤال عاجل: لمن يكون الأمر بعده؟¹⁴

يروي ابن الأثير أن نور الدين أخذ خاتم أبيه وسار إلى حلب. كان الخاتم علامة سلطانه في الكتب والأوامر. حمله الابن إلى المدينة التي ستصير قاعدة ملكه، بينما انشغل رجال الدولة بتدبير انتقال الحكم في الموصل.¹⁵

وفي المعسكر رجل آخر يمكن أن يجتمع عليه الجند: ألب أرسلان، ابن السلطان السلجوقي محمود. تحرك الكتاب والأمراء للحيلولة دون استنثاره بالجيش، وكتبوا من يحتاجون إلى بيعته لسيف الدين غازي. ومن الموصل دعا زين الدين علي ابن الأكبر ليأتيها ويتولى أمرها.^{16 17}

١٤، ١٥، ١٦، ١٧ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ابن خلكان، وفيات الأعيان؛ حوادث سنة 541هـ، ذكر مقتل زنكي وملك ولديه، وفيات الأعيان، ترجمة 715.

وصل نور الدين إلى حلب وملكها. ولحق به صلاح الدين محمد اليعيساني، أحد رجال التدبير في دولة أبيه؛ وهو غير صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي سيأتي دوره بعد سنوات.¹⁸

واستقرت الموصل لسيف الدين غازي. صار لدولة زنكي مركزان، وفي كل مركز ابن من أبنائه. احتاج نور الدين إلى صلة بأخيه، وإلى رجال يحفظون له حلب، وإلى قوة تدفع الخطر عن أطرافها. كان نصيبه قاعدة يمكن أن يبدأ منها، وكانت وراءها دولة ينبغي أن يعيد جمع ما يستطيع منها.¹⁹

وحلب على مقربة من أنطاكية ومواقع الصليبيين. حولها قرى وطرق وحصون، وفيها أسواق وأهل علم وعمران. يتأثر أهلها بما يقع خارج أسوارها؛ فإذا اضطرب الطريق انقطع المورد، وإذا ضعفت الحامية اقترب الخطر. كان حفظ المدينة أول ما يطلبه حكمها من صاحبه.

رأى خصوم زنكي في موته باباً لاسترداد ما أخذ. والرهاء، التي خرجت من سلطانهم قبل عامين، كانت من أول المواضع التي اختبرت قدرة الابن. إذا استطاعوا استعادتها عرف الناس أن

١٨، ١٩ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان؛ حوادث سنة 541هـ، ذكر مقتل زنكي وملك ولديه؛ وفيات الأعيان، ترجمة 715.

سلطان الأب قد انكسر بمقتله؛ وإذا ثبت حكمه فيها ظهر أن وراء اسم زنكي قوة ما تزال قادرة على القتال.²⁰

وكان على نور الدين أن يجيب بالفعل. أخذ الخاتم، وبلغ حلب، وجمع أسباب الحكم فيها. ثم جاءه الخبر من الرها؛ وسيخرج إليها ليواجه أول امتحان كبير لسلطانه.

٢٠ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث 541هـ، ذكر عصيان الرها، ثم أخبار 542هـ.

الفصل الرابع الرها مرتان

وصل الخبر إلى حلب: عاد جوسلين إلى الرها. كان زنكي قد فتحها سنة 539هـ، ومضى على الفتح عامان، ثم قتل صاحب الدولة، فوجد خصمه في غيابه فرصة. لم ينته سلطان جوسلين بفقد المدينة؛ بقي له تل باشر وما حولها، وراسل من استجاب له من أهل الرها، ودخلها. أما القلعة فبقيت في يد الحامية المسلمة، محاصرة داخل مدينة تغير سلطانها.^{21 22}

سار نور الدين مسرعاً. سبق الجيش الذي أرسله أخوه سيف الدين، ووصل إلى المدينة التي حاول جوسلين استعادتها. خرج جوسلين هارباً قبل أن يثبت للقتال، وعادت الرها إلى صاحب حلب الجديد. ظهر في هذه الحركة أن موت الأب لم يسقط قدرة الابن على حماية ما ورثه.^{23 24}

لكن المدينة خرجت من الاستعادة مثقلة. يصف ابن الأثير نهباً وسبياً وخراباً شديداً، حتى قل من بقي من أهلها. ثبتت الحامية، وانقطع طريق جوسلين، وبقي لأهل الرها ما أصابهم. هذه

٢١ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث سنة 539هـ، فتح الرها؛ وحوادث 541هـ، مقتل زنكي وسيرته.
٢٢، ٢٣، ٢٤ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث 541هـ، ذكر عصيان الرها، ثم أخبار 542هـ.

استعادة سنة 541هـ، وليست فتح زنكي الأول؛ يحفظ الفرق بينهما زمن كل واقعة وكلفتها.²⁵

كان نور الدين في بدء ولايته، وقد أعطى خصومه خبراً عن سرعة حركته. وسيظهر في أعوامه التالية عند القضاء والمال والإحسان، كما سيظهر في جيوشه وحصونه. تبقى الرها في حياته بما وقع فيها، وتأتي بعدها الصفحات الأخرى بما حفظته من أفعاله.

وللفتح الأول أثر وصل إلى بلاد بعيدة عن الشام. أسهم سقوط إمارة الرها في الاستنفار الذي خرجت منه الحملة الصليبية الثانية. مضى خبر المدينة غرباً، ثم عاد أثره جيوشاً تتجه إلى الشرق، وكان مقصدها هذه المرة دمشق.²⁶

كانت دمشق خارج ملك نور الدين. اتصل حكامها ببعض الصليبيين المحليين في موازنتهم السياسية، ثم جاءها خطر من جيوش أخرى من الصليبيين. عند الحصار سيطلب معين الدين أنر مدد البيت الزنكي، ويخرج نور الدين مع أخيه إلى نصرة مدينة لم تدخل بعد دولته.

٢٥ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث 541هـ، ذكر عصيان الرها، ثم أخبار 542هـ.
٢٦ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث سنة 543هـ، ذكر حصر الفرنج دمشق وما فعل سيف الدين غازي.

الفصل الخامس مدينة لا يملكها

كانت دمشق خارج دولة زنكي، وبقيت خارج ملك نور الدين في أول ولايته. ومع هذا، حين تقدمت إليها جيوش الحملة الصليبية الثانية، لم يستطع أن ينظر إليها كمدينة غريبة عن مصير حلب.²⁷

في سنة 543هـ، سنة 1148م، وصلت الجيوش القادمة من الغرب إلى الشام. اختارت دمشق مقصداً، مع ما بين حكامها والصليبيين المحليين من صلات سياسية. وكان الاسم الذي تقوم عليه سلطتها مجير الدين أبق، لكن معين الدين أنر هو الذي يدبر جانباً كبيراً من أمر المدينة ويحفظها. وراء الاسم الحاكم قوة رجل خبير، ووراء دفاع المدينة أهلها وعسكرها.²⁸

لم يبدأ الدفاع حين وصل مدد بعيد. خرج من دمشق رجال يقاتلون ويثبتون أمام القادم. تحفظ الرواية بينهم اسم الفقيه يوسف الفندلاوي، شيخاً كبيراً خرج على قدميه. عرض عليه معين الدين أن يرجع لكبر سنه، وأخبره أن غيره يقوم بالدفاع، فلم يرجع. قُتل

٢٧، ٢٨ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ، حوادث سنة 543هـ، ذكر حصر الفرنج دمشق وما فعل سيف الدين غازي.

في قتال قرب المدينة، وبقي خبره في تاريخها شاهداً على أن مقاومة الحصار لم تكن عمل أمراء وحدهم.²⁹

وكانت الجيوش تضغط، ولم تكن قوة الدفاع كافية لأن يطمئن الناس إلى العاقبة. راسل معين الدين سيف الدين غازي في الموصل يطلب النجدة. خرج غازي بعسكره، واصطحب نور الدين من حلب، ونزلوا بمحصر. هكذا ظهر الأخوان معاً في موقف واسع بعد تقسيم الميراث: لم يتنافسا في هذه المرحلة على دمشق بقتال أحدهما الآخر، بل صار اقترابهما قوة تضغط على من يحاصرها.³⁰

طلب غازي موضعاً يحتمي به عسكره في دمشق إن احتاج، ووعد أن يتركها لأصحابها بعد النصر. احتاج معين الدين إلى الجيش، وخشي أن تدخل معه قوة يصعب إخراجها.

عرف معين الدين هذه الموازنة. أراد النجدة، وأراد ألا يفقد دمشق لبنت زنكي وهو ينجو بها من الصليبيين. في رواية ابن الأثير استخدم وصول القوة الشرقية في رسائله إلى المحاصرين: إذا لم يرحلوا، فقد ينتهي الأمر بتسليم المدينة إلى من يصبح أشد عليهم.

٢٩، ٣٠ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ، حوادث سنة 543هـ، ذكر حصر الفرنج دمشق وما فعل سيف الدين غازي.

وكان لهذه الحجة وجه عند الصليبيين المحليين؛ فهم يعرفون منافسهم المحليين، ولا يشبه حسابهم دائماً حساب ملوك أتوا من بعيد.³¹

اختلفت حسابات قادة الحملة وصلبيبي الساحل: لمن تكون دمشق إذا أخذوها، وكيف يقابلون عساكر الموصل وحلب؟ اشتغلت هذه الأسئلة إلى جانب مقاومة أهل المدينة، فأضعفت اتفاق المحاصرين.

رحلت الجيوش عن دمشق. تختلف المصادر في تفسير أسباب التحول الذي وقع في الحصار، كما تختلف في وزن الاتفاقات بين الأطراف، لكن فشل الحملة في أخذ المدينة ثابت. بقيت دمشق لأصحابها، وعاد القادمون من الغرب دون الغاية التي خرجوا إليها. لم يصر نور الدين سيّداً عليها، ولم يكن إخفاق الحملة نهاية خطر الصليبيين في الشام.³²

ومن التفاصيل التي يذكرها ابن الأثير ارتباط المساومة بتسليم بانياس إلى الصليبيين. وهذه قلعة وموقع قريب من جهة دمشق، لا مجرد اسم في آخر رسالة. سيعود نور الدين بعد أعوام ليأخذها، وستظهر عند ذلك الصلة بين ما كسبته المدينة مؤقتاً من دفع

٣١، ٣٢ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث سنة 543هـ، ذكر حصر الفرنج دمشق وما فعل سيف الدين غازي.

الخطر، وما خسرت في بعض حدودها. ليست كل نجاة آنية خالية من كلفة لاحقة.³³

وكانت بين نور الدين ودمشق صلة أخرى: زواجه من عصمت الدين خاتون، بنت معين الدين أنز. يثبت هذا الزواج رابطة أسرية مهمة بين البيتين، لكنه لا يفسر كل السياسة ولا يجعل الخلاف بعده مستحيلاً. من الممكن أن يصل بيتان بالمصاهرة، ويبقى بين سلطان المدينة وسلطان المدينة الأخرى تنافس على القوة والاستقلال. الأسرة جزء من العلاقات، وليست مفتاحاً واحداً لكل قرار.³⁴

وكانت المصاهرة تصل نور الدين بمعين الدين: عصمت الدين بنت صاحب التدبير في دمشق زوجة صاحب حلب. بقيت لكل مدينة سياستها، وجمع الخطر في سنة الحصار مصلحتي البيتين. اقترب الجيش ورحل العدو، وبقيت دمشق لأصحابها. عرف نور الدين أن بين نصره المدينة وامتلاكها طريقاً آخر، وأن قوة السيف تحتاج إلى تدبير يعرف الرجال والمصالح.

٣٣ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث سنة 543هـ، ذكر حصر الفرنج دمشق وما فعل سيف الدين غازي.
٣٤ — ابن كثير، البداية والنهاية؛ حوادث 569هـ، ترجمة نور الدين، ص 483.

قاومت دمشق من الداخل، وخرجت الموصل بالمدد، وجاء صاحب حلب برجاله. تلاقى هذه القوى في دفع الحملة، وخرج نور الدين من التجربة أقرب إلى معرفة المدينة التي ستدخل دولته بعد أعوام.

خرجت دمشق من الحصار، وبقي السؤال مع نور الدين: كيف يقاتل الصليبيون في جنوب الشام، ومدينة كبيرة مستقلة تعترض الطريق بينه وبين بعض ما يريد الوصول إليه؟ لا جواب سريعاً في سنة 543هـ. كان لا بد أن يعمل أولاً فيما يستطيع بلوغه من قاعدة حلب، وأن تثبت قوته في مواجهة أنطاكية وحصونها. وهناك سيأتي انتصار يحمل اسمه بعيداً، وتأتي بعده هزيمة تذكرنا أن الطريق لا يستقيم على ارتفاع واحد.

الفصل السادس يوم إنب وما بعده

في سنة 544هـ، 1149م، خرج نور الدين إلى ناحية أنطاكية. كان ريموند، صاحب أنطاكية، خصماً يقف وراء حصون كثيرة، ويستطيع أن يجمع قوة تنزل إلى الميدان إذا تعرضت تلك الحصون للخطر. قصد نور الدين حارم أولاً، ثم انتقل إلى إنب؛ فتحرك ريموند ليرفع الحصار. التقى الجيشان، ودخل نور الدين القتال بنفسه، وانتهى اليوم بهزيمة جيش أنطاكية ومقتل أميرها.³⁵

خرج من إنب صاحب انتصار يحمل اسمه. لم يعد ذكره تابعاً لخاتم أبيه؛ عرف الجيش قيادته، وبلغ الخبر المدن، واحتفى الشعراء بالنصر. وكانت دمشق يومئذ خارج ملكه، وأنطاكية خصماً قوياً على أطراف دولته.

بقيت أنطاكية بعد مقتل ريموند. كان ابنه بوهيمند صغيراً، ثم تزوجت أمه، واستمر حكم المدينة بأيدي أخرى. سقط الأمير في إنب، وبقيت وراءه مدينة وحصون وعداوة لم يفرغ نور الدين من مواجهتها.³⁶

٣٥، ٣٦ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث سنة 544هـ، قتل صاحب أنطاكية وهزيمة الفرنج.

الفتح الذي يتلو النصر يحتاج إلى ما يزيد على الفرسان. حين أخذ نور الدين حصن أفامية، أقام فيه من الرجال والميرة والسلاح ما يحفظه. ويكرر ابن الأثير هذا المعنى عند حديثه عن حصون أخرى. كانت القلعة الجديدة عبئاً جديداً أيضاً: حامية تحتاج إلى رزق، ومخزن قد ينفد، وطريق يمكن أن ينقطع. يستطيع الجيش أن يأخذ موقعاً ثم يرحل، ولكن الدولة تُسأل عما يقع فيه بعد رحيله.³⁷

وفي السنة نفسها مات سيف الدين غازي في الموصل. كان قد أعان نور الدين في الدفاع عن دمشق، وحكم جانباً واسعاً من إرث أبيهما. لم يطل حكمه، لكنه ترك مدارس وأخبار كرم، وترك ولداً تولى نور الدين تربيته فيما يرويه ابن الأثير. وتبقى هذه الرعاية خبراً أسرياً مهماً، لا يعوضه حديث الجيوش: دخل ابن الأخ في بيت عمه ورعايته، في الوقت الذي كانت فيه السلطة تتوزع من جديد بين رجال البيت.³⁸

تولى قطب الدين مودود الموصل بمساندة كبار رجالها. أما نور الدين، فجاءته دعوة من سنجار، مدينة لها وزن في بلاد الجزيرة.

٣٧ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ذكر فتح حصن أفامية وأخبار تجهيز الحصون، في السنوات التالية لأنب.

٣٨ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث سنة 544هـ، وفاة سيف الدين وملك قطب الدين وخبر سنجار.

سار إليها في قوة صغيرة، وتسلمها، واستدعى حليفًا يعينه. وحين عرف رجال الموصل ما جرى، جمعوا الجيش وساروا نحوه. كان القتال بين الأخوين ممكًا، وكانت ثمرة إنب قريبة، لكن النصر الخارجي لم يحم البيت من التنافس الداخلي.³⁹

هنا ظهر جمال الدين الوزير. نظر إلى ما وراء اللقاء المرتقب، وأشار بالصلح. إذا انتصر فريق على أخيه، فسيبقى البيت أضعف أمام خصومه، وسيتغير ما يراه السلطان والصليبيون في وزن الطرفين. ليست المسألة من يكون أشجع في هذا اليوم؛ بل ماذا يبقى للجميع بعده. ذهب الوزير إلى نور الدين، وانتهى الأمر إلى اتفاق أعاد سنجار إلى قطب الدين، وجعل لنور الدين حمص والرحبة، واستقر اتجاه حكمه في الشام واتجاه حكم أخيه في الجزيرة.⁴⁰

خرج نور الدين من أزمة سنجار بأرض تصل أجزاء سلطانه، وخرج أخوه بمدينته. وقف طموح كل منهما عند صلح يحفظ للبيت قوته؛ وهي القوة التي سيحتاجان إليها حين يعود القتال مع الصليبيين.

وما كسبه من حمص والرحبة لم يكن تسوية رمزية. حمص حلقة في طريق الشام، والرحبة تصل ذلك العالم ببلاد الفرات. صار

٣٩، ٤٠ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث سنة 544هـ، وفاة سيف الدين وملك قطب الدين وخبر سنجار.

مجال عمله أكثر اتصالاً، وصار لبيت زنكي ترتيب يساعده على التوجه إلى الصليبيين بدل أن تستغرقه حرب الموصل. لم يكن الوزير تابعاً يزين قراراً جاهزاً؛ لقد حمل رأياً غير مجرى الأزيمة.

بعد إنب بقليل واجه نور الدين جوسلين، صاحب ما بقي من نفوذ إمارة الرها. في هذا اللقاء هُزم المسلمون، وأسر حامل سلاح نور الدين، ووصل السلاح إلى جوسلين. يذكر ابن الأثير أن جوسلين أرسله إلى صاحب قونية في رسالة تفاخر. بلغ الإهانة السياسية أثر الهزيمة العسكرية، ولم يكن لصاحب إنب أن يلغي ما وقع باستدعاء مديح الأمس.⁴¹

غير نور الدين سبيل العمل. استنفر رجالاً من التركمان، وجعل لمن يظفر بجوسلين مكافأة. انتشر الترصّد، ثم خرج جوسلين للصيد ووقع في أيدي جماعة منهم. حاول أن يخلص نفسه بفدية، لكن انخبر وصل إلى أبي بكر بن الداية، نائب نور الدين في حلب، فأرسل قوة أخذته أسيراً. تلك رواية ابن الأثير، وهي تُظهر دور العيون والنواب والقوى المحلية في مكسب لم تحقّقه مواجهة الجيشين السابقة.⁴²

٤١، ٤٢ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث سنة 545هـ، انهمام نور الدين من جوسلين وأسرهم بعد ذلك.

أضعف الأسر ما بقي لجوسلين، وتوالى انتقال الحصون في تلك الجهات. لم تقع جميع هذه التحولات في يوم واحد، وبعض تاريخها مختلف فيه، لكن الاتجاه واضح: تقلص النفوذ الصليبي شمال حلب، وزادت قدرة نور الدين على التقدم. وكان يزود المواقع التي يدخلها بما تحتاج إليه، لأن المكسب الذي لا يمكن حفظه قد يعيد العدو إلى الموضع نفسه.

في سنوات قليلة عرف نور الدين وجهي الحرب: أقبل عليه النصر في إنب، ثم أفلت منه أمام جوسلين. وحين عجز اللقاء المفتوح عن حسم الأمر، جاءت ثمره الترصد وعمل نوابه. كانت الخبرة تتسع مع الدولة، ومع كل مكسب ينفتح أمامه امتحان جديد.

صار للشمال وزن جديد، ولكن دمشق بقيت خارج سلطانه. ولم يكن في وسعه أن يبلغ جنوب الشام مطمئناً إلى طريقه، بينما تتغير أحوال مصر وعسقلان والصليبيين. كانت القضية التالية مدينة يعرفها، وله فيها مصاهرة، لكنه لا يملك قرارها.

الفصل السابع الباب الشرقي

في سنة 548هـ، 1153م، أخذ الصليبيون عسقلان. كانت المدينة تتبع مصر، وكانت قوتها تعترض امتدادهم نحو الجنوب. يذكر ابن الأثير اضطراب الحكم المصري وخلافاً داخل المدينة في تفسير سقوطها، بعد مقاومة كان أهلها قد ردوا فيها المحاصرين. مهما يكن وزن كل سبب، فقد دخلت عسقلان في يد الصليبيين، وصار انخطر أقرب إلى مصر وأشد على دمشق.⁴³

لم يملك نور الدين طريقاً حراً إلى عسقلان. كانت دمشق بينه وبين بعض الجبهة التي يريد العمل فيها، يحكمها مجير الدين أبق، وتربطها بالصليبيين تفاهمات ومال تؤديه لهم. عرف نور الدين أن محاولة أخذ المدينة بقوة ظاهرة قد تدفع صاحبها إلى الاستنجاد بهم، فيواجه جيشاً قادمًا من الخارج ومدينة تقاتله من الداخل.

بدأ بالرسائل والهدايا. أظهر لمجير الدين المودة، ثم أخبره، وفق رواية ابن الأثير، أن بعض أمرائه يكاتبه في تسليم دمشق. أخذ مجير الدين يبعد من يسميهم نور الدين ويأخذ إقطاعاتهم. ضاق

٤٣ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث سنة 548هـ، ذكر ملك الفرنج عسقلان.

حوله نطاق الرجال القادرين على الدفاع عنه، وأصبحت ثقته بالرسائل وسيلة لتقويض القوة التي كان يحتاج إليها.⁴⁴

عملت الاستمالة قبل دخول الجيش: يبتعد أمير عن مجير الدين، ويضعف آخر، وتضيق حول صاحب دمشق الدائرة التي يستند إليها. كانت المدينة تحصنها الأسوار، ويحفظ حكمها الرجال؛ فلما تفرق بعض هؤلاء انفتح أمام نور الدين طريق جديد.

وكان عطاء بن حفاظ من أقوى رجال مجير الدين. أسند إليه أمر دولته، ثم قبض عليه وقتله. خسرت دمشق رجالاً قادراً من رجالها، ووجد نور الدين في مقتله فرصة يزيد بها الضغط.

كان على صاحب دمشق أن ينظر إلى خصم يعمل خارج الأسوار وإلى رجال تتغير صلاتهم داخلها. اقترب القرار الذي سيخرج المدينة من حكم إلى حكم.⁴⁵

طلب مجير الدين قبل ذلك مدد الصليبيين، وعرض عليهم مآلاً ومكسباً يساعده على رفع الحصار. أخذوا في جمع قواتهم، لكن المدينة سبقت هذا الجمع إلى تسليم أبوابها. كان التوقيت جزءاً من النجاح؛ فالحصار الذي يطول يمنح الآخرين فرصة للدخول في النزاع، والدخول المبكر غير المسألة قبل وصولهم.

٤٤، ٤٥ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان؛ حوادث سنة 549هـ، ذكر ملك نور الدين دمشق؛ وفيات الأعيان، ترجمة 715.

لم ينته أمر القلعة باقتحام يهدم آخر ما يملكه صاحبها. فإوضه نور الدين، وعرض عليه إقطاعاً فيه حصص، فسلم القلعة وخرج. تغير ما أُعطيه بعد ذلك، ولم يرض بما انتهى إليه؛ فرحل إلى بغداد، وعاش فيها حتى مات. لا تختصر هذه العاقبة في أن الجميع رضوا بالتغيير. خرج رجل من سلطانه وبلده، بينما كسب رجل آخر مدينة كبيرة لظالما أراد ضمها.⁴⁶

ويدون ابن كثير أخباراً عن إلغاء رسوم ومظالم عند دخول نور الدين، وعن عناية بأهل المدينة وأسواقها. هذه الأخبار تعين على فهم قبول الحكم الجديد، وتكشف أن الدخول العسكري لم يكن آخر العمل. كان على السلطان أن يثبت للناس معنى انتقال السلطة في معاملاتهم وأرزاقهم، لا في الرايات فوق القلعة وحدها.⁴⁷

اتصلت الآن حلب بدمشق في حكم واحد. بينهما حصص وحماة ومواقع وقوات، وإلى الجنوب طريق نحو بانياس وحوران، وإلى الشرق صلات ببلاد الجزيرة. لم تختف الحدود ولا الأخطار،

٤٦ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان؛ حوادث سنة 549هـ، ذكر ملك نور الدين دمشق؛ وفيات الأعيان، ترجمة 715.

٤٧ — ابن كثير، البداية والنهاية؛ حوادث 549هـ، دخول دمشق، ج 16 ص 370-371؛ وترجمة 569هـ ص 480-482.

لكن نور الدين خرج من حال أمير شمالي تعترض مدينة مستقلة
مجال حركته إلى حال صاحب مكرين كبيرين في الشام.

لدمشق علمائها وتجارها وقضاها وأسرها، ولها ذاكرة حكم لم تبدأ
به. دخلها الرجل الذي يحمل إرث زنكي، وكان عليه أن يتعامل
مع مدينة أقدم من دولته وأوسع من اسمه. ربما تكسب الطاعة
الأولى بالموازنة بين الخوف والرجاء، لكن إبقاء المدينة لا يقوم
طويلاً على الموازنة نفسها. يحتاج الناس إلى قضاء يرد الحقوق،
وحماية للطريق، وإدارة لا تجعل كل من يحمل ختمًا شريكاً في
أموالهم.

ولم يكن جمع حلب ودمشق نهاية جمع الشام. ظلت مدن الساحل
وإمارات الصليبيين قائمة، وظلت داخل العالم الإسلامي سلطات
متنافسة. غير أن هذا الاتصال أعطى نور الدين قوة جديدة ظهرت
في السنوات التالية، حتى إن بعض أصحاب الحصون رأوا أن
مقاومته بعد دمشق أشد من مقاومته قبلها، فاختاروا التفاوض
والتسليم.⁴⁸

لا يفتح هذا الحدث طريق القدس وحده. بين دمشق والقدس
قلاع وقوات وخلافات، وبين القدرة على الحرب والقدرة على

٤٨ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث سنة 549هـ أو التي بعدها، ذكر ملك نور الدين
تل باشر.

تحرير مدينة مقدسة فرق كبير. لكنه أزال عائقاً كان حاضراً منذ أول سنواته، وغير موضعه في خريطة المنطقة. صار يستطيع أن يصل بين ميادين كانت من قبل متباعدة في إرادتها السياسية.

بعد الباب الشرقي يأتي باب آخر أصعب في دوام فتحه: باب صاحب الحق إذا كان خصمه من أهل السلطان. هنا ينكشف مقدار ما تعنيه قوة الدولة للرجل الذي لا جيش معه.

الفصل الثامن حين يكون السلطان خصماً

يروى ابن الأثير أن رجلاً اعترض نور الدين في حق له، وكان نور الدين يلعب بالكرة على الخيل. لم يحل الموضع بين الرجل وبين دعواه؛ ترك السلطان ما في يده، ومضى إلى مجلس القضاء. وأخبر القاضي أنه جاء محاكماً، وطالبه أن يعامله في الخصومة كما يعامل غيره. انتهى الحكم لصالحه، ثم بذل للرجل ما كان النزاع عليه.⁴⁹

ليس في الخبر أن القاضي حكم للضعيف لأنه ضعيف، أو للسلطان لأنه سلطان. قيمة المجلس في إمكان عرض الدعوى، وفي قبول صاحب القوة أن يدخلها بوصفه طرفاً. وقد يكون الحق مع القادر كما يكون مع غيره؛ العدل أن يُبحث عن الحق، وألا يقوم قدر الشخص مقام حجته.

وليس ما أعطاه بعد الحكم بدلاً من القضاء. لو كانت الهبة هي كل ما وقع، لبقى الأمر فضلاً يستطيع أن يعطيه وأن يمنعه. دخول المجلس جعله أمام طريقة للفصل، ثم جاء الإحسان بعد معرفة الحق. يذكر الخبر هذا التابع، وفيه فرق يضيع إذا اختصر في أن ملكاً كريماً أرضى رجلاً فقيراً.

٤٩ — ابن كثير، البداية والنهاية؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ترجمة نور الدين في حوادث 569هـ؛ البداية والنهاية ص 484-485، والكامل: سيرته وعدله.

وتنقل أخبار سيرته موقفاً آخر طُلب فيه إلى مجلس الحكم في وقت مطر ووحل. سخر أحد من قربه من صاحب الدعوة، فأنكر نور الدين ذلك، وخرج للقاضي. لا تحملنا هذه الأخبار على ادعاء أن كل صاحب حق في دولته وصل، أو أن كل حكم نُفذ، لكنها ترسم سلوكاً تكرر في ذاكرة من وصفوه: كان طلب المحاكمة قادراً على أن يوقف عادة السلطان ويرده إلى معنى المسؤولية.⁵⁰

ومن هذا المعنى اتسع عمل دار العدل. وهي مجلس للشكاوى ومظالم أصحاب السلطة؛ لا يغني مجرد وجود محكمة عن طريق يستطيع به من ظلمه موظف نافذ أن يبلغ من يستطيع الإنصاف. كانت رتبة الظالم نفسها قد تجعل الدعوى عسيرة، فإذا أحاط السلطان برجاله وترك القضاء وحيداً أمامهم، صار المكان الذي يقصد إليه الناس أقل قوة ممن يشكونه.

ارتبط إنشاء هذا المجلس في رواية ابن كثير بشكاوى تتصل برجال أسد الدين شيركوه. كان شيركوه من كبار قادة نور الدين، وله إقطاعات ونواب. اشتكى أناس من تعدي بعض أولئك النواب، ولم يكن القاضي كمال الدين بن الشهرزوري قادراً على حسم الأمر

٥٠ — ابن كثير، البداية والنهاية؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ترجمة نور الدين في حوادث 569هـ؛ البداية والنهاية ص 484-485، والكامل: سيرته وعدله.

كما يريد أمام هذه القوة. بلغت الشكاوى نور الدين، فكان لدار العدل أثر يتجاوز زيادة مكان جديد للقضاء.⁵¹

عرف شيركوه ما يقتضيه المجلس، فجمع رجاله، وأمرهم برد ما ليس لهم، وتسوية الحقوق قبل أن يصل أصحابها إلى نور الدين. كان القائد يستطيع أن يكون سنداً لنوابه، لكنه عرف أن قربه من السلطان لا يوفر لهم حماية مطلقة. وبهذا صار توقع المحاسبة باعثاً على الإصلاح قبل إصدار أحكام جديدة.

وصل أثر دار العدل إلى دائرة شيركوه نفسه. القائد الذي تحتاجه الدولة في الحرب له رجال وأعمال، ومن يقع عليه ظلم في هذه الدائرة يجد باباً يبلغ منه شكواه إلى السلطان.

كان نور الدين يجلس للمظالم، ويعرض عليه ما يأتي من القرى والمدن. تختلف الروايات في عدد مجالسه في الأسبوع، وليس عدد ثابت هو المهم في هذا الموضع. المهم أن وقت الحكم لم يكن كله محجوزاً للأمرء، وأن الشكاوى كانت موضوعاً معلوماً من موضوعات العمل، لا مناسبة طارئة إذا بلغ الغضب مبلغاً لا يمكن احتماله.⁵²

٥١، ٥٢ — ابن كثير، البداية والنهاية؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ترجمة نور الدين في حوادث 569هـ؛ البداية والنهاية ص 484-485، والكامل: سيرته وعدله.

ومع القضاء احتاج إلى رجال يعلمون ما يفصلون فيه. حفظت المصادر أسماء قضاة وعلماء أسند إليهم عملاً، وتذكر سيرته إقباله على الفقه ومساءلة أهله. كان على المشتكي أن يجد علماً وأناة، كما يجد قدرة على تنفيذ الحكم. القرب من العالم لا يكفي إذا لم يُعط عمله قدرًا في قرار الدولة.

كان لحضور نور الدين وزن كبير في هذا المجلس. يسمع السلطان، ويعرف رجال الدولة أنه يستطيع مساءلتهم. ومع هذا الحضور نشأ باب يقصده من أثقلته مظلمة.

فتح للشكاوى طريقاً، وجعل على رجال دولته حدًا يحسبون له حساباً. تحفظ الأخبار وقائع من هذا العمل، ويظهر فيها العدل في مجلس وفعل، لا في لقب وحده.

تظهر شخصية نور الدين هنا بغير السيف. يقف صاحب دعوى أمامه، فينزل عن نشاطه؛ ويبلغ قاضيه عجز عن بعض النافذين، فينشئ طريقاً للمحاسبة. القوة التي حملته إلى دمشق هي نفسها التي يمكن أن تسد أبوابها في وجه أهلها، فإذا وجهها إلى حماية الوصول إليه صار للمدينة سبب آخر لأن تطمئن إلى الحكم.

وكان المال هو الامتحان الملازم لهذا كله. من يحكم في حق غيره لا يستقيم أمره إذا حسب الأموال التي يحملها منصبه ملكاً شخصياً

يستطيع أن يهبها كيف شاء. ولنور الدين في هذا الباب أخبار
تكشف جانباً من حدوده مع نفسه وأهله.

الفصل التاسع ما في يده وما له

في خبر يورده ابن الأثير، طلبت زوجة نور الدين زيادة في النفقة. يذكر المؤرخ أنه أحالها إلى ملك له بمحصر، وأنه لم يفتح لها خزائن الدولة لتعوض به ما تريد. وبين في جوابه أن الأموال التي يتصرف فيها للمسلمين ليست ملكه الخاص، وأن حقه فيها لا يطلق يده في كل ما يشتهي أهله.⁵³

وردت الزوجة في الخبر من غير اسم. وكانت حاجة البيت امتحاناً لما يعده السلطان حقاً له، ولما يحفظه من حق الناس في الأموال التي يديرها.

ويذكر في موضع آخر أن نور الدين كان يقتني ما يملكه من نصيبه الذي يجوز له، ويستفتي في وجوه أخذه وإنفاقه. وتذكر روايات مخصصاً يقوم بحاجته أقره له أهل العلم. يجتمع المعنى في أنه كان يتحرى الفرق بين ما يتولى التصرف فيه بحكم الولاية وما يملك أخذه لنفسه، دون أن يرسم حساباً مالياً كاملاً لم يصل إلينا.⁵⁴

الخزائن في يد السلطان، والقرار له، ومن حوله ينتظرون رضاه. هذا موضع يغري بأن يصبح إذنه دليل استحقاقه. فإذا أراد شيئاً

٥٣، ٥٤ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن كثير، البداية والنهاية؛ الكامل، حوادث 569هـ وسيرة نور الدين؛ البداية والنهاية ص 481-482؛ والكامل، البقيعة سنة 558هـ.

وجد من ينفذه، وإذا أعطى قريباً استطاع أن يسمي العطاء كرمًا. أما الحد الذي تحمله هذه الأخبار فهو حد داخل السلطة نفسها: القدرة على الصرف لا تجعل كل صرف صحيحاً.

وإلى هذا الحد اتصل رفع رسوم ومظالم في بعض بلاده. الضرائب التي ترد في المصادر باسم «المكوس» ليست عنواناً لكل التكاليف العامة، ولا نستطيع أن ننقل حكم عصر على كل نظام مالي آخر بكلمة واحدة. لكنها في تلك الأخبار تمثل أعباء أنكرها العلماء أو شكا منها الناس، وأزال نور الدين وجوهاً منها.⁵⁵

كان للحرب نفقة ثقيلة. الخيل والسلاح والحاميات والذخائر تحتاج إلى مال مستمر، والمدن التي تؤخذ قد تحتاج إلى إصلاح قبل أن تأتي منها موارد. يستطيع صاحب حرب أن يجد في ذلك عذراً دائماً لتوسيع الأخذ من الرعية. ولهذا تكتسب أخبار إزالة المظالم وزناً، إذا بقيت الدولة قادرة على القيام بعملها بعد إزالة ما عد ظلماً.

تظهر أفعال تحرر في وجوه من المال، وتبقى وراءها نفقات دولة لها جيش ومدن وحصون. كان عليه أن يوازن بين مطالب كثيرة، وأن يحدد في شأنه الخاص ما يأخذ وما يترك.

٥٥ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن كثير، البداية والنهاية؛ الكامل، حوادث 569هـ وسيرة نور الدين؛ البداية والنهاية ص 481-482؛ الكامل، البقعة سنة 558هـ.

على أن الإنفاق الخيري لم يكن عنده مجرد عطاء فردي ينتهي حين يأخذ المستفيد نصيبه. المدارس والمستشفيات وإصلاح الطرق والمياه تحتاج إلى استمرار، وقد خصصت لها أصول وأوقاف تقوم بشيء من نفقتها. والأوقاف أموال أو ممتلكات يُحبس أصلها ويجعل ريعها للغرض المحدد، فتنتقل المنفعة من لحظة البذل إلى ترتيب قابل للدوام.⁵⁶

كان هذا الطريق يتيح للعناية أن تبقى في مكان معلوم. يجد المريض مستشفى، ويجد طالب العلم مدرسة، ولا يحتاج كل يوم إلى قصة جديدة يقنع بها الأمير أن يعطيه. ليس معنى ذلك أن الوقف يحمي نفسه؛ فقد يفسد الناظر أو يضعف الريع أو تتغير المدينة. لكنه يجعل للخدمة أصلاً واسماً ومسؤولية، بدل أن تبقى وعداً في صدر رجل.

ويمكن للقرب من السلطان أن يهدد هذه الأصول كما يهدد القضاء. فقد يرى موظف أن حاجته العسكرية أولى، فيمد يده إلى رزق مدرسة أو فقير. في أخبار نور الدين جواب معروف سيظهر بعد هزيمة البقيعة: لم ير أن حاجة الجيش تبيح له ببساطة إلغاء الحقوق التي يقوم عليها أهل العلم والعبادة والفقراء. سيحتاج إلى

٥٦ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن كثير، البداية والنهاية؛ الكامل، حوادث 569هـ وسيرة نور الدين؛ البداية والنهاية ص 481-482؛ والكامل، البقيعة سنة 558هـ.

تعويض الجيش، لكنه لا يبدأ ذلك باعتبار كل مورد ضعيف الحماية مالا مباحاً.⁵⁷

وإذا اجتمع هذا مع دار العدل، ظهرت علاقة بين المال والمحكمة. حماية حق صغير تحتاج إلى أن يكون للموظف سقف، وحماية مال عام تحتاج إلى أن يكون للسلطان نفسه سقف. فإذا استثنى صاحب الحكم نفسه، صار يسهل على كل من دونه أن يجد استثناء يشبهه.

وقد حفظ ابن خلكان والذهبي من أخبار زهده ما يبين أن صورته لم تكن صورة ملك يتكاثر في مظاهر الترف. غير أن الزهد في السيرة لا يعني أن دولته لم تكن غنية أو أن جيشه لم يحتاج إلى خيل جيدة وسلاح حسن. البساطة في شأنه انخاص لا تقوم مقام التجهيز، كما أن جودة التجهيز لا تعطيه إذناً بإسراف البيت.⁵⁸

ومن هنا يحسن أن ننظر إلى أثر المال في الناس. لم يكن العطاء الذي يذكره المؤرخ دائماً مالا نقدياً؛ قد يكون كتاباً، أو مكاناً

٥٧ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن كثير، البداية والنهاية؛ الكامل، حوادث 569هـ وسيرة نور الدين؛ البداية والنهاية ص 481-482؛ والكامل، البقيعة سنة 558هـ.
٥٨ — الذهبي، سير أعلام النبلاء؛ ابن خلكان، وفیات الأعيان؛ ترجمة نور الدين؛ وفي السير نقل شهادة ابن عساكر.

للتعلم، أو علاجاً لفقير، أو ماء يبلغ طريقاً. حين تتحول الموارد إلى
منفعة محسوسة، يفهم أهل البلد شيئاً من معنى جمعها وتديرها.
وتأتي في دمشق مؤسسة يمكن أن يرى فيها القارئ هذا المعنى قائماً
في بناء. لم تعد الصلة بين السلطان والفقير يومئذ دعوى في مجلس
القضاء وحده؛ صار لها أيضاً باب يدخله المريض.

الفصل العاشر باب للمريض

في دمشق، أنشأ نور الدين بيمارستاناً؛ والبيمارستان مستشفى، لا مأوى يكتفي بإطعام المرضى. صار للبناء أطباء وأدوية وموارد تحفظ عمله، وبقي اسمه مرتبطاً بالمدينة قروناً. وترد سنة 549هـ، 1154م، في تأريخ إنشائه، السنة التي دخل فيها نور الدين دمشق. اجتمع انتقال الحكم مع بداية مؤسسة تضع حاجة المريض في مجال مسؤولية الدولة.⁵⁹

يُورد ابن كثير خبراً عن مال فدية أسير من ملوك الصليبيين صرف في إنشاء المستشفى. لا يسمي الخبر الأسير تسمية نتيح لنا الجزم به، ولذلك لا نلحق الفدية بأمير أسر بعد سنة البناء. المهم في الرواية وجه الصرف: مال وصل إلى يد السلطان من حرب، ثم تحول إلى مكان يعالج فيه من لا يستطيع أن يدفع.⁶⁰

كانت الخدمة موجهة إلى الفقراء والمساكين، مع بيان يورده المصدر أن دواء نادراً إذا لم يوجد إلا فيه لا يحرم منه الغني. هذا تفصيل يدل على تمييز الحاجة من الاسم الاجتماعي وحده. قد يملك الإنسان مالاً ولا يستطيع العثور على ما يحتاج، فيكون وجود

٥٩، ٦٠ — ابن كثير، البداية والنهاية؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان؛ البداية والنهاية، ترجمة 569هـ ص 481-482 و486؛ وفيات الأعيان، ترجمة 715.

الدواء سبباً لإتاحة العلاج له. وكان القادم المستوصف لا يُمنع من الشراب الذي يعد فيه؛ ويذكر الخبر أن نور الدين جاء فشرب منه.

دخل نور الدين المستشفى الذي أنشأه، وشرب مما يُعد فيه للناس. وبقي بعد خروجه باب العلاج مفتوحاً، تقوم على خدمته موارد الوقف؛ فحاجة المريض لا تنتظر زيارة السلطان.

للمريض ضعف لا يحتاج إلى إثبات بطولة. قد لا يملك أن يذهب إلى مجلس القضاء، ولا أن يقنع من يراه بسرعة حاجته، وقد تؤكل مدخراته في أيام قليلة. وجود باب معلوم للعلاج يرفع بعض هذا الحمل، ويجعل الرعاية قابلة للطلب من غير انتظار لقاء استثنائي. هنا يقع أثر يصعب أن نعهده بعدد القلاع، مع أنه يدخل حياة الناس كل يوم.

قام البناء، وانتظم فيه علاج وتعليم على طب عصره. وأبقت دمشق اسمه في ذاكرتها؛ مؤسسة تصل بين مال ينفق وأهل حاجة يقصدهونها.

ولم تقف العناية عند المرضى. يذكر ابن كثير أوقافاً لتعليم الأيتام القراءة والكتابة والقرآن، ولنفقتهم وكسوتهم، كما يذكر موارد للأرامل والمساكين وذوي الحاجات. هذه الأبواب تصل حاجات تفرق في حياة البيت: ولد فقد معيله يحتاج إلى طعام،

لكنه يحتاج كذلك إلى تعلم، وقد يترك التعليم إذا بقي الطعام وحده بلا كسوة أو مكان.⁶¹

وجعل لليتيم سبيلاً إلى التعليم مع ما يحتاجه من نفقة. بلغ العون حاضر الطفل، وامتد إلى قدرة يتعلمها ويحملها معه بعد ذلك.

ومن داخل المدينة يمتد النظر إلى الطريق. تذكر السيرة خانات وأبراجاً وخفراء في مواضع الخوف، واستعمال حمام الرسائل في نقل الأخبار. الخان موضع ينزل فيه المسافر، والخفراء رجال للحماية، والحمام وسيلة اتصال معروفة في ذلك العصر. هكذا تتصل المؤسسات بما بين المدن، لأن الطريق غير الآمن يفسد أثر مدينة عامرة.⁶²

قد لا يرى المسافر اسم السلطان كل ساعة، لكنه يرى أثر تديره إذا وجد مكاناً ينزل فيه، أو إذا بلغ الخبر قبل أن يصبح خطراً متأخراً. والجيش يحتاج إلى الاتصال، كما يحتاج إليه من يدبر المدن ويستجيب لما يقع فيها. لم تكن مؤسسات نور الدين كلها أبنية كبيرة؛ بعض أثره في صلة موضع بموضع، وفي ترتيب خبر يصل إلى من يستطيع العمل به.

٦١، ٦٢ — ابن كثير، البداية والنهاية؛ ابن خلكان، وفیات الأعيان؛ البداية والنهاية، ترجمة 569هـ ص 481-482 و486؛ وفیات الأعيان، ترجمة 715.

ونتصل الحماية كذلك بطريق الحج. يذكر ابن كثير إقطاعات
لأمرأء من العرب لخفض التعرض للحجاج. كانت تلك معالجة
من داخل ميزان القوى الموجود، يستعين فيها بوجهاء لهم قدرة
على الطريق. ليس لدينا ما يثبت أن كل قافلة أمنت بعد ذلك،
لكن الخبر يدل على أن سلامة العابرين كانت موضوعاً سياسياً
يُصرف فيه المال ويعقد عليه الاتفاق.⁶³

وحين ننظر إلى هذه الأعمال مجتمعة، نرى سلطاناً يحاول أن يجعل
للحاجة عنواناً يمكن الوصول إليه. المرض في مستشفى، واليتم في
تعليم ونفقة، والخصومة في مجلس، والطريق في حماية واتصال.
ليست صورة مثالية مكتملة، لكنها أوسع من صورة رجل يخرج
للحرب ثم يعود إلى قلعة لا يعنيه ما وراءها.

وفي قلب هذا البناء كانت الكتب والعلماء. لا تكفي الموارد حتى
يعرف من يدير الخدمة كيف يحسن إدارتها؛ ولا يكفي القاضي
أن يكون قريباً من السلطان حتى يعرف العدل. كان نور الدين
يريد من دولته اتجاهاً دينياً وعلمياً ظاهراً، وهذه رغبة تحمل أثراً في
ال عمران والسياسة معاً.

٦٣ — ابن كثير، البداية والنهاية؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان؛ البداية والنهاية، ترجمة 569هـ
ص 481-482 و486؛ وفيات الأعيان، ترجمة 715.

الفصل الحادي عشر السلطان بين الكتب والعلماء

تصف أخبار نور الدين إقباله على مطالعة الكتب الدينية، وسماعه الحديث، وعنايته بالفقه. كان حنفي المذهب، لكن مجالسه وأعماله اتصلت بعلماء من مذاهب مختلفة. ليس في هذا أنه بلغ منزلة كبار المجتهدين، ولا أن كل قرار عسكري خرج من مجلس علم؛ إنما كان العلم عنصراً حاضراً في طريقته في السؤال وفي اختياره من يقربهم.⁶⁴

وحفظ الذهبي شهادة ابن عساكر، محدث دمشق ومؤرخها، في عناية نور الدين بالعلم. عاش ابن عساكر في عصره، وشهد المدينة التي أخذت دور التعليم تنتظم فيها، وكان له هو نفسه عمل في هذا البناء العلمي.⁶⁵

والكتاب في يد الحاكم قد يبقى زينة، وقد يدخل في طريقة عمله. من أخبار نور الدين استفتاؤه العلماء في حقه من الأموال، واستعانتة بالقضاة، وعنايته بمدارس ودور للحديث. هذه صلوات

٦٤ — ابن كثير، البداية والنهاية؛ ابن خلكان، وفیات الأعيان؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء؛ ترجمة نور الدين في المصادر الثلاثة؛ البداية والنهاية ص 482-487.
٦٥ — الذهبي، سير أعلام النبلاء؛ ابن خلكان، وفیات الأعيان؛ ترجمة نور الدين؛ وفي السير نقل شهادة ابن عساكر.

عملية: سؤال يؤثر في النفقة، ورجل علم يدخل في الفصل بين الناس، وبناء يجمع من يتعلمون ويعلمون.

أنشأ في دمشق داراً لسماع الحديث وإسماعه، ارتبطت بآبن عساكر، وكانت من أوائل الدور المتخصصة في هذا العلم. صار للرواية والدرس موضع معلوم وموارد تحفظ لقاء المعلم بطلابه.⁶⁶

كان للحديث موضعه، وللفقهاء مدارس، وللمسجد باب الواسع في الصلاة والتعليم. تتجاوز هذه الأعمال في المدينة، ويجد الطالب فيها سبيلاً إلى العلم الذي يقصده.

وبنى مدارس في مدن من دولته، منها دمشق وحلب وحماة وحمص. وينقل ابن خلكان أخباراً عن صلته بشرف الدين بن أبي عصرون، أحد الفقهاء الذين كان لهم عمل في هذه المؤسسات. لم تكن مدرسة واحدة في العاصمة كافية لتغطية مجال الدولة، كما لم يكن حضور العلماء في مجلس الأمير يغني عن وجودهم حيث يقيم الطلاب.⁶⁷

كان هذا البناء متصلاً أيضاً باتجاه نور الدين إلى تقوية المؤسسات السنية في مدنه. ففي حلب وبلاد الشام تاريخ من تنوع مذهبي وسياسي، وكانت بعض الشعائر مرتبطة بسلطات سابقة. يذكر ابن

٦٦، ٦٧ — ابن كثير، البداية والنهاية؛ ابن خلكان، وفیات الأعيان؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء؛ ترجمة نور الدين في المصادر الثلاثة؛ البداية والنهاية ص 482-487.

كثير تغييرات في الأذان والشعائر، ويقرأها في لغة الانتصار للسنة. نفهم بهذا اختيارات السلطان، ولا نلغي به وجود من خالفوه ولا نجعل كل السكان يومئذ رأياً واحداً.⁶⁸

أتاح المال لبعض أهل العلم وقتاً وكتاباً ومجلساً. يدخل هؤلاء إلى حياة المدينة بما يحملون من معرفة، ويصير دعم التعليم عملاً يتجاوز العطاء العابر.

وتحفظ الرواية عن نور الدين وقاراً للعلماء يتجاوز المعتاد من استقبال الأمراء. كان يقوم لبعض القادمين منهم ويجلسهم قريباً، في الوقت الذي ينتظر كبار قواده الإذن بالجلوس. كما أنكر أن يجعل مجلسه سبيلاً إلى الوقعة في أحد من أهل العلم. هذا فرق يبين ما أراد أن يشعر به من يجلس أمامه: قدر الإنسان لا يقتصر على عدد من يطيعونه في الجيش.⁶⁹

لكن توقير العالم لا يجعله خارج السؤال عن قوله أو عمله. والعلم الذي يطلبه نور الدين يحتاج إلى من يميز الصواب من الخطأ، كما يحتاج إلى من يصون مجلسه من التشهير. في أخبار العلماء أنفسهم خلاف ونقد، وفي الفقه اجتهاد يتفاوت. ولذلك لا نستخرج من

٦٨، ٦٩ — ابن كثير، البداية والنهاية؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء؛ ترجمة نور الدين في المصادر الثلاثة؛ البداية والنهاية ص 482-487.

هذا التوقير قاعدة تمنع مراجعة صاحب العلم، وإنما نستخرج حداً يحفظ الكرامة ويمنع تحويل المجلس إلى سوق لإسقاط الناس.

وخدمه عماد الدين الكاتب، ودون من أخبار دولته، وكتب الشعراء في انتصاراته. اتسعت حوله أصوات تصنع ذاكرة العصر: خبر يحفظ واقعة، وقصيدة تحمل فرحاً، وكتاب يبقى لمن جاء بعدهم.

وفي حلب كان المنبر الذي أمر بصنعه يعلن غاية العمل: القدس. غاية بعيدة، لكن الصنّاع بدأوا، والخشب أخذ صورته، والاستعداد صار فعلاً يراه الناس. عرف الرجل وجهته، وأعطى منها نصيباً لعمل يومه.

جاوز الدرس عمر السلطان، وحمل الكتاب علماً إلى قراء لم يدر كونه. وتحتاج المؤسسات بعده إلى من يقوم عليها، كما احتاجت في حياته إلى المال والرجال.

والرجل الذي يسمع في مجلس العلم خبراً عن الصلاة والورع كان له بيته وصلاته الخاصة. لا يكفي أن نبني صورته من مؤسساته؛ فبين ما يؤيده السلطان علناً وما يفعله في وقته الأقرب إلى نفسه صلة تستحق أن نعرف ما حفظته المصادر منها.

الفصل الثاني عشر البيت والصلاة

عصمت الدين خاتون بنت معين الدين أنر اسم حاضر في حياة نور الدين. وصل زواجه منها بيتاً يحكم في حلب بيت يدبر دمشق، ثم صارت دمشق بعد أعوام في دولته. يرد اسمها في أخبار العبادة والإحسان، فلا تبقى عند معرفة السياسة مجرد رابطة بين رجلين.⁷⁰

وفي خبر يورده ابن كثير، كانت تكثر قيام الليل، ثم نامت مرة عن عبادتها المعتادة، فأصبحت متأثرة بفواتها. سألها نور الدين، فعرف السبب، وأمر بضرب الطبل في القلعة عند السحر ليقظها ومن يريد القيام مثلها. تحفظ الرواية فعلاً أسرياً يتصل بعادة البيت وبالصوت الذي يستطيع أن يأمر به السلطان.⁷¹

وصل خبر قيامها إلى كتب التاريخ، وحفظ منه هذا الاهتمام في البيت: يفوتها ورد اعتادته، فيعرف الزوج سبب تأثرها، ويهيئ ما يوقظها ومن يريد القيام.

٧٠، ٧١ — ابن كثير، البداية والنهاية؛ حوادث 569هـ، ترجمة نور الدين، ص 483.

ولعصمت الدين أثر بقي في عمران دمشق: مدرسة وخانقاه على نهر بانياس، حفظ النعيمي خبرهما في تاريخه. خرج إحسانها من البيت إلى المدينة، وصار له مكان يقصده أهله.⁷²

ومن بيته خرج الصالح إسماعيل، الذي تولى الحكم بعد موته وهو في نحو الحادية عشرة. انقطع حضور السلطان صاحب التجربة، ووجد الطفل نفسه في صدر دولة واسعة، يحيط به رجال يعرفون مقدار ما ترك أبوه.⁷³

كان نور الدين يصلي ويقرأ القرآن، وتصفه كتب التراجم بكثرة صلاة الليل والمحافظة على الجماعة. وحفظت شهادة ابن عساكر التي نقلها الذهبي ما عرفه من حسن سيرته وتحريه؛ أخبار تصل أيام الحكم بما كان يحمله صاحبه في عبادته.⁷⁴

لا تقوم الصلاة في هذه الصورة مقام العمل. الرجل الذي يذكرون قيامه يخرج إلى العسكر، ويرتب الحصون، ويسأل عن الأموال، ويجلس للشكاوى. وقد فهم هو نفسه صلته بأهل الدعاء

٧٢ - النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس؛ ج 1 ص 385، المدرسة الخلتونية البرانية، تمييز خاتون بنت أنزمن زمرد خاتون.

٧٣ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان؛ حوادث 569هـ، ملك الصالح؛ وفيات الأعيان، ترجمة 715.

٧٤ - الذهبي، سير أعلام النبلاء؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان؛ ترجمة نور الدين؛ وفي السير نقل شهادة ابن عساكر.

والعبادة على أنها جزء من حياة المجتمع الذي يحميه، لا مجرد رجال بعينين عن شأن الدولة.

وحين حذره قطب الدين النيسابوري من تعريض نفسه للخطر، لأن موته قد يضيع البلاد، أجابه بما يرد حفظها إلى الله. في الجواب خشوع وقلة اعتماد على شخصه، لكن خطر موت القائد على الناس حقيقة أيضاً. لا يُقرأ الورع على أنه أمر لكل مسؤول أن يدخل كل خطر بنفسه؛ فالمسؤولية قد توجب توزيع العمل وتقدير ما يجره فقهه من اضطراب.⁷⁵

وتذكر سيرته أنه كان حسن الخط، كثير المطالعة، مقتصدًا في شأنه الخاص، ويجتنب الفحش في كلامه. هذه صفات نقلها معجبون به، وتكشف ما عدّوه ذا قيمة في الملك: ألا تحوله الهيبة إلى سوق سباب، وألا تصبح الخزائن التي يديرها عذراً للترف. ومن السهل على المؤرخ أن يمدح الشجاعة؛ أما حفظ هذه التفاصيل فيربط القوة بطريقة استعمالها في الأيام العادية.⁷⁶

٧٥ — ابن كثير، البداية والنهاية؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ البداية والنهاية، ترجمة نور الدين ص 485-486؛ الكامل، سيرته سنة 569هـ.

٧٦ — الذهبي، سير أعلام النبلاء؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان؛ ترجمة نور الدين؛ وفي السير نقل شهادة ابن عساكر.

ورعى نور الدين ابن أخيه سيف الدين غازي، ووصل البيت
بزواج الفتى من بنت قطب الدين. كانت القرابة موضع رعاية،
وإن عرفت الأسرة بعد ذلك تنافساً على الحكم.

تصل أخبار البيت إلينا من هذه النوافذ: زوجة لها عبادة وإحسان،
وابن صغير ينتظره الحكم، وفتى من الأسرة يرعاه عمه. وأكثر ما
بقي من سيرته بعد ذلك أخبار العمل العام.

صحبت العبادة أيام النصر كما صحبت أيام التعب والخطر. وداخل
هذه الحياة يمضي إلى ما يراه واجباً، ثم يتحمل ما يأتي به الطريق.

وصلت صلواته شأنه الخاص بما ينتظره من مسؤوليات. وفي
المرض والهزيمة سيظهر امتحان آخر لهذا الرجل: ماذا يفعل حين
تضيق القدرة التي اعتاد أن يعمل بها؟

الفصل الثالث عشر من أيامه

حفظت المصادر من أيامه عادات وأفعالا تتكرر في حياة السلطان: صلاة وقراءة، ومجلس يدخل إليه قادم، ووقت يخرج فيه مع رجاله. من هذه الأخبار المتفرقة نقرب من يومه خارج تواريخ الفتوح.

كان ركوبه جزءاً من حياته، لا انتقالاً من مكان إلى مكان فحسب. أتقن الفروسية، واعتنى بتمرين الخيل، وأحب اللعب بالكرة على ظهورها. وكان لهذه اللعبة في عصره عصي تضرب بها الكرة وميدان تتحرك فيه الخيول؛ يسميها المؤرخون الجوكان. يصفه بعضهم بالمهارة فيها، ويصلها هو في جواب من عاتبه بتعليم الخيل الكر والفر.⁷⁷

هذا الجواب يكشف ما رآه في فعله، ولا يلزم أن كل ساعة لعب كانت تدريباً ضرورياً لا يمكن أن يزيد. يكفي أن الحاكم لم ير القوة اسماً يلبسه عند خروج الجيش؛ كان للجسد والفرس تمرين، وكانت القدرة على المناورة تحتاج إلى تكرار. وبين خبر اللعبة وخبر نزوله

٧٧ — ابن كثير، البداية والنهاية؛ ترجمة نور الدين، ص 482-487؛ اللعب بالكرة ومجلسه وخبر حمل السيف.

إلى القضاء صلة أخرى: إذا جاء الحق لم يكن تعلقه بنشاطه عذراً يمنع من الحضور.

وفي مجالسه يظهر الوقار. لم يكن كبار الأمراء جميعاً يجلسون بين يديه بلا إذن، وكانت لنجم الدين أيوب منزلة خاصة. هذا هو أبو صلاح الدين، وكان من رجال دولته الذين عرفوا تدير المدن، فلا ينبغي أن يضيع دوره وراء شهرة ابنه. أما شيركوه، أخوه، فكان القائد الذي سيذهب إلى مصر، ولكل منهما عمل يفسر قربه.⁷⁸

يقوم في القلعة لفقيه أو قادم من أهل الخير، ويجلسه قريباً. يدخل الرجل بلا جيش، فيجد من السلطان توقيراً. كانت للقوة مواضعها، وكانت لأهل العلم والعبادة منزلتهم في المجلس.

وكان يسمع الحديث. تذكر الرواية أن خبراً عن تقلد السيف أثار عنايته بطريقة حمل الجند سيوفهم، فأمر بتغييرها، وخرج على الوجه الذي اختاره. نفهم هنا شدة حرصه على متابعة ما بلغه عن النبي صلى الله عليه وسلم. ولا نحول هذا الخبر إلى ترجيح فقهي عام في كل هيئة عسكرية، فإن أحكام الوسائل واللباس وتغير الأعراف باب أوسع من قصة سلطان.⁷⁹

٧٨، ٧٩ — ابن كثير، البداية والنهاية؛ ترجمة نور الدين، ص 482-487؛ اللعب بالكرة ومجلسه وخبر حمل السيف.

وحين يدخل في المال يسأل، وحين تصله مظلة ينظر، وحين يقرب عالماً يمنع أن تصبح حاشيته طريقاً للوقعة فيه. هذه أعمال مختلفة، لكنها تكشف تدريباً آخر لا يقوم على الفرس: أن يراجع صاحب الحكم ما اعتاد المحيطون به عده من امتيازاته. قد يضحك حاجب من استدعاء قاض، فيصبح موقف السلطان نفسه تعليماً لما ينبغي أن يجري بعد ذلك.

وتحفظ أخبار الطرق وسيلة اتصال لا تشبه سرعة عصرنا: حمام يحمل الرسائل بين أمكنة متفق عليها. الخبر الذي يفيد في يوم وصوله قد يفقد فائدته بعد أسبوع. وفي دولة تمتد بين مدن متباعدة، يصير ترتيب نقله جزءاً من القدرة على الحكم. يحتاج الجيش إلى الطعام، وتحتاج العاصمة إلى معلومة تأتي من القلعة البعيدة قبل أن يحسم أمرها.⁸⁰

وهذه العناية بالخبر تقابل ما وقع أيام مرضه. حين انتشرت إشاعة موته، لم يكف رسل يقولون إنه حي؛ أجلس في موضع يراه الناس، فهدأ من تحركوا على خلاف ذلك. يستطيع الخبر الخطأ أن يصنع فعلاً حقيقياً، وتحتاج مقاومته أحياناً إلى أمر يراه الناس، لا إلى إعلان يطلب منهم التصديق وحده.

٨٠ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن كثير، البداية والنهاية؛ الكامل، حوادث 567هـ، الحمام الهوادي، البداية والنهاية، ص 486-487.

توزعت أيامه بين ركوب ومجلس وكتاب، وبين شأن يعود إليه من مدينة بعيدة. وحفظ الرواة من تلك الأيام ما لفتهم من عاداته؛ أخباراً تقرب الرجل، وتبقى حياته أوسع مما وصل منها إلينا.

القدوة هنا في الاتجاه الذي يمكن أن تثبته الأفعال: تدريب يناسب العمل، واستعداد لسماع صاحب الحق، وصلة بالعلم، وتحري في المال. يستطيع إنسان أن يختار من هذا فعلاً صغيراً يناسب موقعه، من غير أن يلبس صورة السلطان أو يقلد ما يرتبط بسلطة لا يملكها.

والفعل الصغير لا يملك دائماً أن يحمي العمل الكبير من مفاجأة. ستقع زلازل تهدم ما بني في سنوات، ويأتي مرض يحرك من حوله، وتنزل ضربة عسكرية يخسر فيها الجيش ماله ورجاله. عند ذلك لا تكفي معرفة ما أحب نور الدين أن يفعله في يومه؛ نحتاج إلى معرفة ما فعله حين تغير اليوم كله.

الفصل الرابع عشر حين تهتز الأرض

في رجب سنة 552هـ، 1157م، ضربت الزلازل الشام. كانت مدن نور الدين ومدن خصومه معرضة لها، وذكر ابن الأثير خراباً في حماة وشيزر وحمص وغيرها، وسقوط أسوار وقلاع، وكثرة من ماتوا. لا تفرق الأرض حين تتحرك بين راية وراية، لكن ما يأتي بعد الحركة يتوقف بعضه على من يستطيع الإنقاذ والإصلاح والحماية.⁸¹

يروى المؤرخ خبر معلم في حماة خرج من موضع تعليمه لبعض شأنه، ثم سقط البناء على الصبيان. عاد، ولم يجد من يأتي يسأل عن ولد كان فيه. يحمل الخبر صورة للفاجرة، ولا يعطينا إحصاء لأهل المدينة؛ وقد يكون في طريقة نقله اختصار لما بلغ الراوي. تكفي دلالاته أن الخراب أصاب الأسر مجتمعة، وأن نجاة إنسان لا تعني بقاء من كان ينتظرهم.⁸²

وحين تسقط الأسوار، يصبح للكارثة باب عسكري. كانت بعض تلك المدن والثغور قريبة من الصليبيين، وإذا ضعفت حاميتها ودفاعها أمكن أن يدخل فيها خصم. جمع نور الدين عسكره، وأقام

٨١، ٨٢ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث سنة 552هـ، ذكر الزلازل بالشام وملك حصن شيزر.

على الأطراف إلى أن أصلحت الأسوار. لم يكتف بأن يرسل تعزية للمدينة؛ احتاجت أعمال البناء إلى وقت تحميه قوة على الحدود.⁸³ تحرس القوة الأطراف، ويعيد أصحاب الصنعة الأسوار. احتاجت المدينة إلى العاملين معاً: حماية تمنح البناء وقته، وبناء يعيد الحماية إلى موضعها.

وكان لشيزر مصير ثقيل. قامت فيها أسرة بني منقذ، ولها تاريخ وصلات بالأمراء المحيطين بها. جاء الزلزال على القلعة وبيوتها، وذكر المؤرخون هلاك عدد كبير من أهلها. انتقلت بعد ذلك إلى نور الدين، فأعاد العناية بتحصينها. لا يصح أن يصبح انتقال الملك عنواناً يبتلع موت الأسرة ومن حولها؛ المكسب السياسي وقع في موضع كارثة إنسانية.⁸⁴

وتعود الزلازل في سنة 565هـ، 1170م، فتضرب مدن الشام مرة أخرى. يذكر ابن الأثير شدة الأثر في حلب وغيرها، ويذكر أن الصليبيين أصابهم من الخراب مثل ما جعلهم يشغلون بأنفسهم. تلك موازنة لم يصنعها حاكم: لو بقيت جهة قوية لا يمسه الخراب لتغير الخطر على الجهة الأخرى.⁸⁵

٨٣، ٨٤ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ، حوادث سنة 552هـ، ذكر الزلازل بالشام وملك حصن شيزر.
٨٥ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ، حوادث سنة 565هـ، ذكر الزلزلة وما فعلته بالشام.

جمع العسكر وأقام على الأطراف، وأصلح من التحصين ما استطاع. كان امتحانه هذه المرة في حفظ ما بقي من المدن، وفي إتاحة الوقت لرفع الجدران من جديد.

إعادة الجدار أيام من عمل ومال وصنعة. وبقي لهذا العمل أثر تعرفه المدينة حين يعود للخطر إلى أبوابها.

حفظت الأخبار خروجه إلى الأطراف وإصلاح التحصين. عند هذين العاملين يظهر دوره في الكارثة، وحوله بلاد تحمل خسارتها وتعيد شيئاً من قدرتها على الحياة.

ومع ما وقع للبلاد جاء امتحان لجسد السلطان نفسه. في سنة 554هـ، 1159م، مرض نور الدين مرضاً شديداً في حلب، وانتشرت إشاعة أنه مات. تتحرك الدولة عادة باسم رجل، فإذا شاع موته قد يبدأ بعض رجالها اتخاذ قرارات لا يرجعون فيها إلى مركزها القديم.⁸⁶

تحرك أخوه الأصغر أمير أميران، وجمع من استطاع، وحاصر القلعة. وكان شيركوه في حمص، فلما بلغه خبر موت نور الدين اتجه إلى دمشق ليتغلب عليها، بحسب ابن الأثير. هنا لا يظهر القائد

٨٦ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث سنة 554هـ، أخذ حران من نور الدين وعودها إليه.

الكبير في صورة الطاعة الهادئة التي تحملها أخبار أخرى؛ ظهر حكمه على لحظة ظنها نهاية سلطان كان يخدمه.

كان نجم الدين أيوب في دمشق، فأنكر على أخيه التسرع. طلب منه أن يرجع إلى حلب: إن كان نور الدين حياً خدمه في هذه الحال، وإن ثبت موته بقي لهم أن ينظروا في أمر دمشق. عاد شيركوه، ووصل إلى القلعة، وأظهر نور الدين للناس في نافذة فراّه الذين تحركوا على خبر وفاته. عند ذلك تفرق كثير ممن كانوا مع أخيه.

ظهر السلطان في النافذة، فسقطت إشاعة موته وتفرق كثير ممن اجتمعوا حول أخيه. ثم مضى أمير أميران إلى حران، وأخذها، واستعادها نور الدين بعدما عوفي. أخرج المرض التنافس إلى العلن، ولم يغلقه ظهور الرجل حياً.

حفظ حضوره الحكم في تلك المرة. وبقيت تحت الطاعة رغبات وقوى ستظهر من جديد إذا غاب. عاد من مرضه إلى دولة تحتاج إلى عمله وإلى تدبير ما يأتي بعده.

خرج من المرض، وعاد إلى عمله. بقي أمامه خصومه وقلاعه ومصر البعيدة، وبقي في جيشه رجال لهم رغبات وقوة. سيمر بعد أعوام بخطر آخر لا يأتي من إشاعة، بل من جيش يدخل معسكره قبل أن يستعد رجاله للقاء.

الفصل الخامس عشر البقيعة

في سنة 558هـ، 1163م، نزل نور الدين قرب حصن الأكراد، في الموضع الذي اشتهر بخبر البقيعة. كان يتجه إلى ضغط على الحصن وطرابلس، ومعه عسكره. وبينما كان الناس في خيامهم نهاراً، وصلت قوة من الصليبيين وحلفائهم على نحو لم يمنحهم وقتاً كافياً للاستعداد. فشل من حاول صد المقدمة، وجاء المهاجمون وراء المنهزمين إلى المعسكر.⁸⁷

لم يكتمل ركوب الخيل وحمل السلاح قبل أن يخالطهم العدو. وقعت قتلى وأسرى، وضاع من متاع الجيش وخيله وسلاحه شيء كثير. هذه هزيمة لجيش نور الدين، لا تعثر يسيراً نحوه لأن الرجل عُرِف بالنصر في أيام أخرى. وكان سبب المفاجأة والغفلة في رواية المؤرخ جزءاً من الخبر، لا مجرد قوة الخصم وحدها.

بلغ الخطر خيمة نور الدين. ركب فرسه سريعاً، وبقي قيد الفرس متعلقاً برجله، فنزل رجل كردي فقطعه، فاستطاع السلطان أن ينجو. قُتل الرجل، ويذكر ابن الأثير أن نور الدين أحسن بعد ذلك إلى من خلفهم وجعل لهم ما يقوم بنفقتهم. لا يحفظ هذا الخبر

٨٧ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان؛ الكامل، حوادث 558هـ، انهمز نور الدين من الفرنج؛ وفيات الأعيان، ترجمة 715.

اسم من حمل هذا العمل الحاسم، لكن أثره في نجاة السلطان ظاهر.⁸⁸

حفظ الخبر للرجل الكردي فعله ولم يحفظ اسمه. تدخل عند الخطر، ومات، وبقي له أهل تولى نور الدين رعايتهم. دخل إلى السيرة بما بذله في نجاة صاحبها.

نزل نور الدين عند بحيرة قدس القرية من حمص. ليست هذه القدس التي يقصدها عنوان الكتاب؛ تشابه الرسم في بعض النصوص قد يوهم القارئ انتقالاً بعيداً لم يقع. لحق به من نجا من جيشه، وبدأت أمامه مسألة البقاء قريباً من العدو أو الابتعاد بعد الخسارة.⁸⁹

حذر أصحابه من أن يتبعه العدو وهو في ضعف، فاختار البقاء قريباً وإعادة جمع الجيش. عرف الخطر الذي أمامه، وحمل تبعة قراره، ثم جعل ما بقي من القوة بداية للتجهيز.

أرسل إلى حلب ودمشق وسائر ما يستطيع أن يأتيه بالمدد. وصلت أموال وثياب وخيام وسلاح وخيل، وعوض من فقدوا ما يحتاجونه للعودة إلى العمل. ويذكر ابن الأثير أنه قبل أقوالهم في ما ذهب منهم، وأنه جعل إقطاعات من قُتلوا لأولادهم. بهذا لم

٨٨، ٨٩ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان؛ الكامل، حوادث 558هـ، انهزام نور الدين من القرنج؛ وفيات الأعيان، ترجمة 715.

تُترك الهزيمة شأنًا خاصًا بالرجل الذي ضاع فرسه أو بالبيت الذي فقد معيله.⁹⁰

لا يرد الجيش بمجرد خطاب يمدح ثباته. الجندي الذي لا خيل له يحتاج إلى خيل، والذي ذهب خيمته يحتاج إلى مأوى، وأسرة القتيل تحتاج إلى مورد. يستطيع الكلام أن يجمع الإرادة، لكنه لا يقوم مقام الأداة. وفي أخبار التعويض تظهر دولة عندها قدرة على أن تصل الموارد بالناس سريعاً.

ومع كثرة ما أنفق، اقترح بعض أصحابه أن يستعين بما جعله للفقهاء والفقراء والقراء وغيرهم. رفض ذلك، ورأى أن هؤلاء حقاً لا يصح نقله لمجرد شدة الحاجة في باب آخر. كما عبر عن اعتقاده في أثر دعائهم والبر بهم. هذان المعنيان حاضران في خبره: اعتقاد ديني، وحث في التصرف في الأموال المخصصة.⁹¹

صحب الدعاء تجهيزاً وحشداً وتعويضاً. وحين عرض قطع بعض الأرزاق وقف عند حق أصحابها؛ أراد إصلاح حال الجيش، وأبقى لمن هم خارج صفوفه موضعهم في القرار. بلغ الصليبيين أنه نزل قريباً من حمص، وأنه يعيد جمع رجاله. يذكر ابن الأثير أن ذلك صرفهم عن خطة كانت تتجه إلى المدينة. لا

٩٠، ٩١ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان؛ الكامل، حوادث 558هـ، انهزام نور الدين من القرنج؛ وفيات الأعيان، ترجمة 715.

نعرف كل حساباتهم من هذه الرواية، لكن المعسكر الذي بدا لحظة الهزيمة مكسوراً لم يبق بلا حركة. صار استرداد القدرة خبراً يصل إلى الخصم ويؤثر في قراره.

ثم جاءت طلبات صلح لم يقبلها في ذلك الوقت، وبقيت الجبهة مفتوحة. ليس بعد البقيعة انتصار يقع في الصباح التالي ليمحو الخسارة، بل عمل في القوة، وبحث عن شركاء، وانتظار ظرف يصلح للقاء آخر. سيأتي ذلك في حارم، وفي الوقت نفسه يكون جيشه الذي أرسله إلى مصر في موضع حصار شديد.

تزيد البقيعة معرفتنا بنور الدين أكثر مما تزيده قائمة انتصارات بلا توقف. نرى حدود الاستعداد، وخطر المفاجأة، وقيمة الرجل غير المشهور، وطريقة إصلاح خسارة مادية وبشرية. وبقدر ما نعرف من رجوعه، لا ننسى من لم يرجعوا معه.

الفصل السادس عشر الذين جاءوا إلى حارم

في سنة 559هـ، 1164م، كان شيركوه في مصر بقوة أرسلها نور الدين. دخل الصليبيون في النزاع المصري، وحاصروا تلك القوة في بليس. صار نور الدين أمام جبهة بعيدة تحتاج إلى تخفيف الضغط، وأمام حصون قريبة خرج بعض رجالها إلى مصر. اجتمع في حارم مطلب استعادة القوة بعد البقية مع مطلب حماية الحملة البعيدة.⁹²

لم يطلب هذا العمل من جيشه وحده. كتب إلى أخيه قطب الدين مودود في الموصل، وإلى قرا أرسلان صاحب حصن كيفا، وإلى نجم الدين ألي صاحب ماردين، وغيرهم. جاء قطب الدين بعسكره، وكان زين الدين علي في مقدمته، ووصل مدد من جهات أخرى. يذكر ابن الأثير هذه الأسماء، وهي تحفظ للنصر تركيباً أوسع من اسم قائد واحد.⁹³

لم يتجاوب كل صاحب سلطة من أول الأمر. يروي ابن الأثير خبراً عن تردد قرا أرسلان، ثم خروجه بعدما راسل نور الدين زهاد بلاده وعبادها، ووصف لهم ما جرى من قتل وأسر وطلب

٩٢، ٩٣ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث سنة 559هـ، هزيمة الفرنج وفتح حارم، ثم أخذ بانياس.

الدعاء وحث الناس على النصر. تحرك الضغط داخل تلك البلاد، فصار صاحبها أمام أمر له أثر في طاعة الناس له.⁹⁴

خرجت رسائل نور الدين من مجلسه إلى بلاد حلفائه، وبلغت من يثق الناس بدعائهم وكلمتهم. يروي ابن الأثير أنهم حثوا على النصر؛ فوجد الأمير المتردد حوله رجالاً يسألونه الخروج، وقضية تزيد عليه ضغطها مع كل خبر من الشام.

اقتربت الجيوش من حارم ونصبت آلات الحصار. اجتمع من بقي في الساحل من قوى الصليبيين وحلفائهم، وكان فيهم صاحب أنطاكية وصاحب طرابلس وغيرهما. تحرك نور الدين عن موضع الحصار، ووقع اللقاء بعد مناورة ورد حركة. لم تكن القلعة وحدها هي المقصودة؛ كان الجيش الذي يأتي لإنقاذها جزءاً من القضية.

بدأ الهجوم على يمين جيش المسلمين، وتراجعت قوة في ذلك الجانب. ينقل ابن الأثير قولاً إن التراجع كان حيلة متفكراً عليها لتباعد فرسان العدو عن المشاة. يقدمه بصيغة تدل على أن هذا

٩٤ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث سنة 559هـ، هزيمة الفرنج وفتح حارم، ثم أخذ بانياس.

تفسير مروي، ولذلك لا نصف الخطة كأننا نملك أمرًا مكتوبًا
يثبت كل مراحلها.⁹⁵

هاجم زين الدين علي وعسكر الموصل مشاة العدو، كما يروي ابن
الأثير. عاد الفرسان الذين انطلقوا في المطاردة فوجدوا قوة المشاة
قد ضربت؛ واجتمعت عليهم جيوش المسلمين. انقلب سير
المعركة، وانتهى اللقاء بهزيمة الصليبيين وحلفائهم وأسر عدد من
قاداتهم. اجتمع الرجال الذين دعاهم نور الدين في موضع الحسم،
ثم فتح لهم طريق القلعة.

وبعد اللقاء سقطت حارم. اتسعت فرصة التقدم، وأشار بعض
أصحاب نور الدين عليه بقصد أنطاكية، التي فقدت أميرها الأسير
وشيئاً من القوة التي تحميها. لكنه لم يندفع إليها. خشي أن يؤدي
الضغط إلى تسليم قلعتها إلى إمبراطور الروم، فيصير له جار أشد
قدرة من صاحب أنطاكية.⁹⁶

وقف عند ما كسبه، ونظر إلى ما قد يستدعيه التقدم من خطر.
تحتاج القلعة إلى حصار، وقد يدعو صاحبها قوة أكبر؛ فاختار أن
ينظم النصر ويقابل خصماً يعرف وزنه.

٩٥، ٩٦ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث سنة 559هـ، هزيمة الفرنج وفتح حارم، ثم
أخذ بانياس.

ولا تُحمى من الخبر كلفة الحرب على المدنيين. يذكر ابن الأثير غارات في تلك الأعمال وأسراً وقتلاً، كما ذكر في أخبار أخرى عنف خصومه. لا نعيد صياغة الغارة في كلمة «تأديب» تخفي من يقع عليه الأذى. الحرب التي تشرح أسبابها السياسية تبقى حرباً تمس حياة غير المقاتلين، وهذا جانب حاضر في تاريخ الطرفين.

أذن نور الدين لبعض جيوش الجزيرة أن تعود. لم يكونوا رجالاً يمكن أن يبقوا إلى غير نهاية؛ وراءهم بلاد وأرزاق وشؤون. ثم اتجه في أواخر السنة إلى بانياس. أظهر توجهاً آخر حمل الصليبيين على تجهيز جهة، بينما قصد القلعة القريبة من دمشق، وضيق عليها حتى أخذها قبل أن يصل إليها مدد كاف.⁹⁷

أصيب أمير أميران، فذهب السهم بإحدى عينيه. شارك أخاه خطر الحرب بعدما سبق أن تحرك على خبر موته. حملت العلاقة خلاف الحكم، ثم جمعت الرجلين في الجيش.

جهز بانياس بالرجال والذخائر. مضت ست عشرة سنة منذ مساومات حصار دمشق التي اتصل اسم القلعة بها؛ أعوام من تقدم وتوقف انتهت إلى عودتها إلى يده.

٩٧ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث سنة 559هـ، هزيمة الفرنج وفتح حارم، ثم أخذ بانياس.

وصل خبر حارم وبانياس إلى مصر. ازداد خوف الصليبيين على بلادهم في الشام، ودخل ذلك في إرادتهم الخروج من الحصار المصري. تلاقى عمل القائد البعيد مع فعل السلطان في الشمال، وصار الميدانان جزءاً من حساب واحد. هنا بدأت مصر تقترب من صلب مشروع نور الدين، لا من أطراف اهتمامه.

الفصل السابع عشر مصر التي طلبها شاور

كان اسم مصر في مجلس نور الدين يحمل وعداً وخطرًا. بلاد واسعة ذات موارد، وموقع يستطيع أن يطوق مملكة الصليبيين من جهة أخرى، لكنها بعيدة، والطريق إليها معرض للعدو، وحكمها لا ينتظر أميراً واحداً يستطيع أن يسلمه إلى من يريد. فيها خلافة فاطمية، ووزير يدبر القوة، وجند وفئات تنافس على الموارد والنفوذ.

في سنة 559هـ جاء شاور إلى نور الدين، وقد غلبه ضرغام على الوزارة. طلب جيشاً يعيده، ووعد بثلث دخل البلاد بعد حقوق العسكر، وببقاء قوة يقودها شيركوه على نحو يصل مصر بنور الدين. كان طالب نصره، لكنه كان يعرض ترتيباً سياسياً ومالياً واسعاً أيضاً.⁹⁸

تردد بين فرصة في مصر وخطر الطريق إليها، وبين حاجة شاور إلى عونهِ والشك في وفائه. حفظت رواية ابن الأثير هذه الموازنة عند أول القرار؛ فالحملة البعيدة تحتاج رجالاً ومالاً، وقد تعود من غير ما خرجت له.

٩٨ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث سنة 559هـ، مسير شيركوه وعساكر نور الدين إلى مصر وعودهم.

كان شيركوه متحمساً للعمل، وهو قائد خبر الحرب وحمل طموحاً إلى العمل في مصر. اختاره نور الدين وأمده بالرجال والمال، وخرج هو بقوة إلى حدود الصليبيين القريبة من دمشق ليشغلهم عن الطريق. بذلك صار إرسال الجيش عملاً يتطلب جيشاً آخر يحمي إمكان وصوله.⁹⁹

وصلت القوة إلى بلبيس، ثم إلى القاهرة. انهزمت قوة ضرغام، وقُتل، وعاد شاور إلى الوزارة. تحققت الغاية الأولى للحملة، لكن العقد الذي بُني عليه إرسالها لم يثبت بعد هذا النجاح. طلب شاور من شيركوه الرجوع إلى الشام، ولم يف له بما اتفق عليه؛ فرفض شيركوه الخروج على هذا الوجه، وأخذ مواقع يستطيع أن يستند إليها.

استدعى شاور الصليبيين. خشي سلطاناً لنور الدين يعلو على وزارته، ورأى في القوة الأخرى أداة لإخراج القوة التي أعادته. ومع هذا الاستدعاء دخل ملك الصليبيين إلى مصر، وأصبح شيركوه أمام جيش مصري وقوة صليبية في وقت واحد. انتهى إلى بلبيس، فحُصر فيها شهوراً.¹⁰⁰

٩٩، ١٠٠ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث سنة 559هـ، مسير شيركوه وعساكر نور الدين إلى مصر وعودهم.

لم تكن القلعة التي استند إليها في قوة بعض حصون الشام. يصف ابن الأثير ضعف سورها وقلة ما يحميها، ويصف قتال شيركوه المستمر. والجيش الذي خرج لتحقيق اتفاق أصبح يعمل على البقاء. لا يتشابه موقف الفارس وهو على طريق يختار السير فيه مع موقفه حين تنقص الميرة ويحاصر مكانه.

في أثناء ذلك اتجه نور الدين إلى حارم ثم بانياس، كما تقدم. وصلت أخبار الهزيمة إلى الصليبيين في مصر، وصار بقاؤهم هناك مكلفاً لما تركوه في الشام. كما قلت ذخائر شيركوه، ولم يكن يعرف كل ما صنعه نور الدين حين دخل في التفاوض. اتفق الطرفان على الخروج من مصر، وعادت القوة إلى الشام.¹⁰¹

لا نكتب خاتمة هذه الحملة كأنها فتح لمصر. عاد شاور إلى منصبه، ثم نكث ما وعد، واستدعى عدواً على من نصره، وانتهت الحملة بخروج شيركوه. وفي الوقت نفسه أثبتت أن جيش نور الدين يستطيع الوصول والتدخل، وأن ضعف الوزارة المصرية يفتح باباً لمنافسين، وأن جبهة الشام تؤثر في قرار من يقاتل في مصر.

ورأى شيركوه بلداً لا يريد أن يتركه بعيداً عن حسابه. حمل إلى نور الدين ما خبره، واستمر اهتمامهما. ومن الممكن أن يتحول التعثر

١٠١ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث سنة 559هـ، مسير شيركوه وعساكر نور الدين إلى مصر وعودهم.

إلى معلومة تعين العمل التالي، لكن هذا لا يلغي ما دفعه رجال الحملة من تعب وخطر. ليست كل محاولة غير ناجحة مرحلة واجبة اختارها التاريخ بأمان لينقلنا إلى انتصار معروف بعده.

وكان يوسف بن أيوب مع عمه في الحملات المصرية. دخل الطريق رجلاً من بيت يخدم نور الدين: أبوه في تدبير المدن، وعمه في قيادة الجيش. وفي مصر ستفتح له أيام الحملة موضعاً يكبر بعد ذلك.

ويحفظ ابن الأثير لاحقاً خبر تردد صلاح الدين في العودة إلى مصر بعد ما لقيه فيها. هذا الخبر مهم لأنه يخالف صورة رجل يتجه إلى تاج يعرف أن مستقبله ينتظره. في الحملة خطر وذكري شدة، وقد يكره المرء الدخول في عمل يصير بعد ذلك بداية مجد له.¹⁰²

انتهت الرحلة الأولى، ولم تنته المسألة. شاور باق، والصليبيون رأوا الطريق، وشيركوه يعرف ما يستطيع أن يفعله إذا عاد. بين هذه الأطراف ستتكرر الحملة، ويتغير من كل عودة مقدار ما يملكه الجميع.

١٠٢ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث 564هـ، الحملة الثالثة، ثم ذكر ملك صلاح الدين مصر.

الفصل الثامن عشر الإسكندرية لا تنام على نصر البابين

عاد شيركوه إلى مصر سنة 562هـ، 1167م. لم يكن حماسه لها قد انقطع بعد الحملة الأولى، ويذكر ابن الأثير أن نور الدين لم يكن راغباً في المسير على الوجه نفسه، لكنه أمد قائده برجال حين رأى إصراره وخشي عاقبة أن يذهب بغير قوة كافية. خرجت الحملة، وطلب شاور مدد الصليبيين مرة أخرى.¹⁰³

عبر شيركوه إلى غربي النيل، ثم تحرك نحو الصعيد. تبعه خصومه، وبلغوا الموضع المعروف بالباين. كان بعيداً عن بلاده، وجيشه أقل عدداً مما يقابله بحسب رواية ابن الأثير، ولم يكن وراءه حصن قريب يأوي إليه إذا هُزم. لهذا جرى رأي في الرجوع، وجرى رأي في القتال، حتى استقر أمرهم على اللقاء.¹⁰⁴

يقرب مجلس المشورة مقدار الخطر. حين ينصح رجل بالرجوع في موضع كهذا، لا يكفي أن نسميه جباناً ثم نمضي. أمامه طريق طويل، وعدد قليل، وبلد لا يضمن أهله النجدة. وحين يدفع آخر إلى القتال، يتحمل كذلك ما يجره ذلك من موت وأسر. لا تدخل

١٠٣، ١٠٤ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث سنة 562هـ، ذكر عود أسد الدين شيركوه ومعركة البابين.

الحملة امتحاناً أدبياً يريد من الرجال عبارة شجاعة، بل امتحاناً يمكن أن ينتهي بفقد القوة كلها.

جعل شيركوه صلاح الدين في قلب الجيش، ورتب حركة يتراجع فيها القلب عند الهجوم من غير أن يتفرق، ثم يعود من يطاردونه إلى موضع ضربت فيه القوة التي تركوها. وقاد هو قوة اختارها، ووقع ما ترويه المصادر من هزيمة للمصريين والصليبيين. في هذا الخبر تحديد أوضح للخطّة مما كان في تفسير التراجع يوم حارم، ولذلك نعرضه في درجته المختلفة.¹⁰⁵

لكن النصر في البابين لم يعط شيركوه مصر. سار إلى الإسكندرية، وقبلت المدينة دخوله بمساعدة من أهلها. ترك فيها صلاح الدين، وتحرك هو إلى الصعيد لجمع الموارد ووسط نفوذه. عادت قوة شاور والصليبيين إلى القاهرة، وأصلحت حالها، ثم اتجهت إلى الإسكندرية وحاصرتها.¹⁰⁶

يذكر ابن الأثير قلة الطعام وشدة الحصار. بقي صلاح الدين داخل المدينة، وصبر معه أهلها. ليس هذا امتداداً آمناً لنصر المعركة؛ انتقل الرجل من خطة مناورة في الصحراء إلى تدير مدينة

١٠٥ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث سنة 562هـ، ذكر عود أسد الدين شيركوه ومعركة البابين.

١٠٦ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث سنة 562هـ، ملك شيركوه الإسكندرية وعوده إلى الشام.

محاصرة. ومن لا يحمل سلاحاً فيها يدفع من قوته وحاجته ثمن البقاء، ولو لم يكن قد اختار الحرب التي أدخلت الجيشين إلى بلاده.

عاد شيركوه من الصعيد، وجرى التفاوض. عرض عليه خصومه مآلاً، واتفق على الخروج، واشترط ألا يقيم الصليبيون في البلاد ولا يملكوا منها قرية. خرجت القوة وعادت إلى الشام، وتسلم المصريون الإسكندرية. كانت هذه نهاية الحملة الثانية: مكسب عسكري ودخول مدينة، ثم رجوع بغير استقرار حكم مصر في يد نور الدين.¹⁰⁷

وفي المقابل، انتهى اتفاق شاور والصليبيين إلى نفوذ لهم في القاهرة وإلى مال سنوي. يذكر ابن الأثير وضع حراس من فرسانهم في أبوابها، وربط ذلك بمحاولة منع عودة جيش نور الدين. لا تتفق هذه النتيجة مع ظاهر الشرط الذي حمله شيركوه عند الصلح؛ العلاقات المتداخلة سمحت لشاور أن يمضي في ترتيب يخالف ما كان يريد قائد الحملة أن يحفظه.

صارت مصر في وضع أشد خطراً من الذي دخلته أول قوة. شاهد الصليبيون طرقها ومدنها ومواردها، وأصبح لهم داخل الحكم

١٠٧ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث سنة 562هـ، ملك شيركوه الإسكندرية وعوده إلى الشام.

موضع ونفوذ. وكان شاور يوازن بين قوتين كي لا يخضع لواحدة، لكن الموازنة تتيح لكل منهما أن يزيد طلبه عليه. من يستخدم حليفاً لإبعاد الآخر قد يجد نفسه بعد زمن أضعف أمام الاثنين.

وعاد صلاح الدين يحمل تجربة لا تشبه صور الفتح التي ستلحق باسمه. عرف حصاراً وجوعاً وخطرًا، وعرف أن النصر في لقاء لا يعالج بالضرورة نفوذ الوزير في القاهرة ولا الحضور الصليبي فيها. هذه التجربة تدخل في خبره عن كراهة العودة الثالثة، الذي نقله ابن الأثير بواسطة رجل قريب منه.

أما نور الدين فبقي صاحب المورد والجيش الذي يرسل، دون أن يصبح مالك القرار في كل ساعة بعيدة. يستطيع أن يحدد الغاية ويختار القائد، ثم تأتي شروط ميدان لا يعرفها حين يكتب إليه. كان على القائد أن يتفاوض وهو يرى ما أمامه، وكان على السلطان أن يحكم على ما وقع بعد وصول الخبر. بين المقصد والتنفيذ هذه المسافة، وهي جزء من حقيقة الحكم الممتد.

أعادت الحملة الأولى شاور ثم فقدت اتفاقها معه. وانتصرت الثانية ثم عادت، وفي الأثناء ازداد خطر الصليبيين على مصر. حين تحركت الثالثة كان البلد الذي تقصده في حال أخرى، وكان للقرار ثقله الجديد.

وصلت الاستغاثة هذه المرة من الخليفة الفاطمي نفسه. يتحرك
شيركوه من جديد، ومصر تحمل آثار بلبيس والفسطاط؛ وراء
منصب الوزير القادم مدن وأهل أصابتهم الحرب.

الفصل التاسع عشر النار والطريق الثالث

في سنة 564هـ، 1168م، دخل الصليبيون مصر مرة أخرى. لم يقفوا عند المال الذي اتفقوا عليه أو النفوذ الذي صار لهم. أخذوا بلبيس، ووقع في أهلها قتل وأسر ونهب، ثم تقدموا إلى القاهرة. يحمل ابن الأثير هذا العنف في تفسير تشدد دفاع الناس عن مدينتهم: خافوا أن يقع لهم مثل ما وقع لبليس، فاشتد امتناعهم.¹⁰⁸

أمر شاور بإحراق الفسطاط، المدينة التي تقع إلى جانب القاهرة. أراد أن يحرم المهاجمين موضعاً يتمكنون فيه، وأمر أهلها بالانتقال. نقل الناس ما استطاعوا، وضاع كثير من الدور والمتاع، وبقي قوم على الطرق، وتحولت حاجة البلد إلى الأمن إلى فقد في أرزاق أهلهم.¹⁰⁹

وقع الحريق بتدبير عسكري، وبقيت كلفته على أهل الفسطاط. خرج الناس من بيوت احترقت، وعجز شاور عن حفظ استقلال وزارته وطمأنينة المدينة التي يدبر أمرها.

١٠٨، ١٠٩ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث سنة 564هـ، مسير الفرنج إلى مصر، وإحراق الفسطاط، واستغاثة العاضد، ومقتل شاور.

استغاث الخليفة العاضد بنور الدين. كانت الخلافة الفاطمية مخالفة لاتجاه نور الدين المذهبي، لكن خطر الصليبيين فتح بينهما طلب نجدة. أرسل العاضد رسائل يصف فيها الضعف والحاجة، ويذكر ابن الأثير شعوراً لنساء من القصر أرسلت مع الكتب لتأكيد الاستغاثة. نعرض ذلك بوصفه ما رواه، دون أن نجعله مشهداً نعرف كيف أعد داخل القصر.¹¹⁰

وصل شيركوه إلى نور الدين وهو يريد العمل نفسه. هياه السلطان بالمال والدواب والسلاح، وأرسل معه أمراء وقوة أوسع، وخرج لتوديع مسيرهم من دمشق. كان صلاح الدين في هذه الحملة أيضاً، مع تردده الذي حفظته الرواية. يورد ابن الأثير أن نور الدين أعانه على التجهيز وألزمه مرافقة عمه.¹¹¹

هذه المرة كان خروج الصليبيين من مصر مرتبطاً بوصول قوة النجدة إلى طريقها. انسحبوا، ودخل شيركوه القاهرة في أوائل سنة 1169م. لم يكن الدخول انتصاراً على جيش صليبي في معركة فاصلة هناك؛ تراجع الخصم، وبقي أمام القائد نظام مصر الذي دعا، وشاور الذي خبر منه الغدر في مرتين.

١١٠ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث سنة 564هـ، مسير الفرنج إلى مصر، وإحراق القسطنطين، واستغاثة العاضد، ومقتل شاور.

١١١ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث 564هـ، الحملة الثالثة، ثم ذكر ملك صلاح الدين مصر.

استمر شاور في التأخير فيما تقرر من المال والحقوق. خشي رجال الحملة أن يعيد ما فعل، ووقع القبض عليه بمشاركة صلاح الدين وقادة آخرين. يذكر ابن الأثير أن شيركوه كان قد نهاهم عن قتله قبل ذلك، ثم أتم الأمر بعدما قبض عليه وطلب العاضد رأسه. قتل شاور، وانتهت وزارته.¹¹²

قتل شاور داخل هذا الانتقال العنيف للحكم. تحفظ المصادر القريبة من الفريق المنتصر خبره في سياق ما تنسبه إليه من خيانة؛ ثم يبدأ في مصر عهد وزير جاء من الجيش القادم.

ولى العاضد شيركوه الوزارة، ولقبه الملك المنصور. صار قائد نور الدين صاحب القوة في مصر، تحت اسم الخلافة الفاطمية. رتب أعماله وإقطاعات عسكره، وبدأ يستقر في المنصب الذي حملته إليه الحملات الثلاث. ثم مات بعد مدة قصيرة، في جمادى الآخرة سنة 564هـ، 1169م.¹¹³

كان موته مفاجأة في موضع تحقق له بعض ما أراد. لا تجعلنا معرفة النتيجة التالية نعهده رجلاً جاء فقط لكي يسلم المنصب لابن أخيه؛ لقد كان وراء المسير حماسه وخبرته، ووراء الحملة مال نور

١١٢ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث سنة 564هـ، مسير الفرنج إلى مصر، وإحراق القسطنطين، واستغاثة العاضد، ومقتل شاور.

١١٣ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث سنة 564هـ، وفاة شيركوه وملك صلاح الدين مصر.

الدين واختياره، ووراء دخول مصر طلب من داخلها وتراجع لقوة خارجها. اتصلت هذه الأسباب في عمل لم يعرف أصحابه آخره.

تنافس قادة على الوزارة بعد شيركوه. اختار العاضد صلاح الدين، وتورد رواية ابن الأثير أن بعض من حوله رأوا صغر سنه النسبي وقلة قوته باباً إلى السيطرة عليه. لم يتفق القادة من أول الأمر على طاعته، فسعى الفقيه عيسى الهكاري وغيره في جمعهم، وبقي من رفض ورجع إلى الشام.¹¹⁴

لم تصح توقعات من أرادوا وزيراً ضعيفاً. جمع صلاح الدين حوله قوة، وأحسن توزيع المال، واستقدم أسرته، وثبت حكمه. كان نائباً لنور الدين في العلاقة الرسمية، لكن موضعه في مصر ومصادر القوة التي يبنها يتيحان له عملاً واسعاً. ومن هنا بدأ وضع جديد يحمل في داخله التعاون والتوتر معاً.

وصل مشروع نور الدين إلى مصر، لكنه لم يصلها بقدميه. دخلها عسكريه وقائده، ثم صار فيها رجل من بيته العسكري يمكن أن ينشئ لنفسه بيت حكم. هذا هو الفرق الذي سيظهر أثره في

١١٤ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث سنة 564هـ، وفاة شيركوه وملك صلاح الدين مصر.

السنوات الأخيرة: السلطان في دمشق يأمر، والوزير في القاهرة
يوازن ما يأمره به مع ما يثبتته في ملكه.

الفصل العشرون الاسم الذي قُرئ على المنبر

بقيت الخلافة الفاطمية بعد تولية صلاح الدين الوزارة. كان العاضد خليفة يُخطب له، وكان وزيره الجديد في الوقت نفسه تابعاً في الظاهر لنور الدين الذي يتصل بالخلافة العباسية. اجتمع في مصر نظامان متداخلان: اسم قائم من البيت الفاطمي، وقوة عسكرية جاءت من الشام واتخذت سبيلاً إلى حكم البلد.

طلب نور الدين من صلاح الدين قطع الخطبة للعاضد، وإقامتها للخليفة العباسي المستضيء. لم يكن تغيير الدعاء على المنبر مسألة لفظ وحده؛ الخطبة إعلان للولاء، يرتبط به اسم من يعده الناس صاحب السلطان الأعلى. إذا تغير الاسم، تغير موضع الحكم المصري في عالم الخلافة.¹¹⁵

تردد صلاح الدين، وذكر خوف اضطراب الناس. وينقل ابن الأثير إلى جانب ذلك تفسيراً سياسياً، هو رغبته في بقاء العاضد قوة يمكن أن يعتمد عليها إذا قصد نور الدين مصر. هذا تفسير المؤرخ لدافع الرجل، لا اعترافاً من صلاح الدين نملكه باللفظ.

١١٥ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث سنة 567هـ، إقامة الخطبة العباسية بمصر وانقراض الدولة الفاطمية.

تؤيد الوقائع وجود توتر في العلاقة، ولكن مقدار كل دافع في هذا التردد يبقى مما تحتاج فيه الروايات إلى موازنة.¹¹⁶

ألح نور الدين، وانتهى الأمر إلى تنفيذ الطلب في المحرم سنة 567هـ، 1171م. تروي المصادر مبادرة رجل إلى الدعاء للخليفة العباسي في الجمعة، ثم تعميم ذلك. وكان العاضد شديد المرض؛ تذكر الرواية أن من حوله لم يبلغوه بتغيير الخطبة، ثم مات بعد أيام.¹¹⁷

انتهى اسم الخلافة الفاطمية من الحكم والخطبة، وثبتت مصر في إطار سياسي ومذهبي جديد. وفي حياة أهلها استمرت تقاليد وصلات تتغير على مهل؛ امتد أثر القرار إلى مجتمع أوسع من يوم الخطبة.

ويصف ابن الأثير ما صار إليه القصر: انتقلت أمواله وذخائره، وفرت أشياء مما فيه، وحُفظ بعض أهل العاضد في موضع منه. كانت تلك نهاية بيت حاكم عاش طويلاً في القصر، وليست مجرد انتصار فكرة على فكرة. لا تنتقل الحكم بشر يفقدون مقاماً وأماناً، وفي أحوالهم درجات لا نعرف جميع تفصيلها.¹¹⁸

١١٦، ١١٧، ١١٨ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث سنة 567هـ، إقامة الخطبة العباسية بمصر وانقراض الدولة الفاطمية.

وفي بغداد، بلغ الخبر فظهرت الأفراح، وجاءت الخلع والأعلام إلى نور الدين وصلاح الدين. تلاقت مصلحة الخلافة العباسية مع اتجاه السلطان الذي أراد إنهاء المنافس الفاطمي، ومع حكم الوزير الذي نفذ التغيير وثبت في مصر. هنا يتوزع العمل مرة أخرى: أمر وإلحاح من الشام، وتنفيذ في مصر، واعتراف من بغداد.

كان المكسب لنور الدين كبيراً. صارت مصر ترتبط باسمه وبالعامل الذي رعاها، وأصبحت قوة الصليبيين بين بلدين قادرين على مهاجمتها من جهتين. غير أن القدرة على هذا التنسيق ليست هي وقوعه في كل مرة. كان يحتاج إلى اتفاق في الوقت والثقة، وإلى قائد مصري يستطيع أن يترك بلده، وإلى سلطان شامي لا يجعل قربه منه سبباً لقلقه على منصبه.

قد تبدو الصورة على الخريطة سهلة: الشام في الشمال، ومصر في الجنوب، والصليبيون بينهما. أما في حياة الرجال ففيها حدود سفر وميرة، ومرض، ورسائل تصل متأخرة، ومخاوف يختلف تقدير صدقها. ليس كل ما يبدو مكسباً لسلطان واحد مكسباً بالقدر نفسه لمن ينوب عنه.

وكان نور الدين قد بنى المنبر قبل ذلك، ويمثل تاريخه سنة 564هـ مرحلة قريبة من دخول القوة الثالثة إلى مصر. جمع المنبر في صورته غاية تتجاوز موضع صنعه، لكن ما بين صنعه ونقله إلى

القدس لن يسير بلا اختلاف. ستتغير الأسماء التي تحكم الشام
ومصر قبل أن يصل.

وليس من الإنصاف أن يُنسب إلى نور الدين تنفيذ كل إصلاح
مصري بعد هذا التحول. قامت في مصر أعمال على يد صلاح
الدين ورجاله، ولهم اختيارات وقدرة تخصهم. نور الدين أرسل
القوة، وأصر على تغيير ولاء الخطبة، وكان له حق الطاعة في البناء
السياسي؛ أما العمل اليومي في القاهرة فلا يخرج كله من دمشق.
دخلت العلاقة بين الرجلين طوراً يحتاج إلى فحص أدق من كلمة
«الأستاذ والتلميذ». في هذه الكلمة معنى من التكوين والرعاية،
لكنها لا تكفي لفهم خلاف على حق القرار وعلى مستقبل الحكم.
سيظهر ذلك عند حصون على طريق الشام ومصر، حيث كان
التلاقي العسكري المرغوب يقترب، ثم يعود صلاح الدين إلى
بلادهم.

الفصل الحادي والعشرون نور الدين وصلاح الدين

خرج صلاح الدين من مصر إلى الشوبك سنة 567هـ، 1171م، وضيق على حصنها. بلغ الخبر نور الدين، فتوجه من الشام ليشارك في الضغط من جهة أخرى. كان ذلك مما يجعل القوة المصرية والقوة الشامية تعملان على الطريق الذي يفصل بينهما. ثم عاد صلاح الدين إلى مصر قبل اللقاء.¹¹⁹

يفسر ابن الأثير الرجوع بخوف صلاح الدين وأهله من اجتماعه بنور الدين؛ إذا صار قريباً منه وفي متناول قوته، أمكن أن يعزله عن مصر. وأرسل صلاح الدين عذراً يتصل بخطر اضطراب البلد في غيابه. لم يقبل نور الدين هذا العذر بحسب المؤرخ، واشتد ما كان بينهما من وحشة.¹²⁰

يحفظ ابن الأثير أخبار هذا التوتر من موقع قريب من البيت الزنكي. تظهر في روايته مخاوف تعطل التعاون، وتبين الحواشي ما نسبته إلى الرجال من تفسير لتصرفاتهم.

١١٩، ١٢٠ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث سنة 567هـ، الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين.

وحفظ بهاء الدين ابن شداد، في سيرته لصالح الدين، أخبار جهاده وتحريره. يبقى للرجل عمله الذي شهد له به من عرفوه، كما يبقى ما نقلته الأخبار من خلافه مع نور الدين. اتسعت قوة مصر، وتعثرت بعض التعاون الذي انتظره منها سلطان الشام.¹²¹

ويروي ابن الأثير مجلساً جمع فيه صلاح الدين أهله حين بلغه عزيم نور الدين على مصر. أظهر أبوه نجم الدين أيوب تأكيد الطاعة له، ثم جاء في الرواية حديث خاص بين كيف ينبغي أن يطمئن إلى إمكان أن يردّه عن المسير من غير مواجهة. نعرض معنى الخبر في حدود مصدره؛ فهذا النوع من الكلام الخاص يحتاج إلى معرفة كيف بلغ الراوي، ولا نضعه في الكتاب كأننا حضرنا المجلسين.¹²²

وبعد ذلك تكرر الخروج إلى جهة الكرك سنة 568هـ، 1173م، على موعد يتفق فيه الجيشان. كان الطريق المصري أطول، فتقدم صلاح الدين، وسار نور الدين بعدما جاءه الخبر. ثم رجع صلاح

١٢١ — بهاء الدين ابن شداد، النوادر السلطانية؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ النوادر السلطانية، المقدمة وأوائل القسم الأول؛ الكامل، حوادث 567-569هـ.
١٢٢ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث سنة 567هـ، الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين.

الدين مرة أخرى، وأرسل الفقيه عيسى الهكاري برسالة وهدايا
يعتذر فيها بمرض أبيه وحاجة مصر إلى حضوره.¹²³

تقبل نور الدين الرسول من غير أن يظهر له كل ما حمله الخبر في
نفسه. يروي ابن الأثير أنه قال إن حفظ مصر أهم من غيرها.
ليس هذا دليلاً أنه رضي عن جميع ما وقع، بل طريقة تعامل
تحفظ الرسالة من أن تصبح إعلان حرب فورياً. وفي الوقت نفسه
كانت وفاة نجم الدين أيوب واقعة حقيقية، لا مرضاً يختلقه
الكتاب لإتمام حجة طرف.

تعثر التنسيق بين مصر والشام. يطلب نور الدين اجتماع القوة،
ويحسب صلاح الدين حساب ما قد يصيب حكمه، وتزيد المسافة
بين القرارين من صعوبة العمل الذي يحتاج أحدهما فيه إلى الآخر.

ولا يعني التوتر أن السنوات السابقة كانت خداعاً. كان لبيت
أيوب خدمة حقيقية، وكان لشيركوه حملات وخطر، وكان لنور
الدين رعاية ومال وجيش. يستطيع التعاون أن ينشئ قوة جديدة،
ثم تصير تلك القوة نفسها موضوع خلاف. لا تعود القدرة التي
منحت في أول العمل مجرد منحة يمكن محو أثرها بكلمة بعد أن
تتصل ببلد واسع.

١٢٣ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث سنة 568هـ، رحيل صلاح الدين إلى الكرك
وعوده، ووفاة نجم الدين أيوب.

كما لا يعني الخلاف أن نور الدين حارب مصر فعلاً. توفي قبل المسير الذي يذكر ابن الأثير أنه كان يهيئ له. ما كان يمكن أن يقع لو عاش ليس حدثاً نؤلفه. قد ينجح تفاوض، وقد تقع مواجهة، وقد تغير واقعة أخرى القرار، لا يعرف الكتاب أي هذه الوجوه كان سيأتي.

وكان مشروع تحرير القدس يحتاج إلى أكثر من جمع الموارد. يحتاج إلى إزالة ما يمنع التنسيق وإلى قبول الشركاء بمواقع بعضهم. فالملكان الذي يبدو من بعيد قاعدة حليفة قد يكون عند صاحبه ملكاً يخشى أن يؤخذ، والقرار الذي يراه السلطان تنفيذاً للطاعة قد يراه نائبه خطوة إلى إقصائه.

بقي بينهما عمل مشترك وخلاف على بعض طريقه. لنور الدين قوة يستطيع بها أن يسائل نائبه، ولصلاح الدين حكم أخذ يثبت في مصر. اجتمع الرجلان في مقصد واسع، وتباعدة في قرارات احتاجت إلى قدر أكبر من الثقة.

وفي الشمال والشرق ظل نور الدين يعمل في عالم آخر من العلاقات. لم يتفرغ لمصر، ولم تكن كل حدوده مواجهة بين المسلمين والصليبيين. هناك أقارب وحلفاء وسلاطين مسلمون، وأمير أرمني يقوم أحياناً في حسابه مقام الحليف.

الفصل الثاني والعشرون الجيران لا يجتمعون في راية واحدة

حين مات قطب الدين مودود في الموصل سنة 565هـ، 1170م، عاد ترتيب بيت زنكي موضوعاً سياسياً. كان لابنه سيف الدين غازي نصيب الحكم، وكانت في داخل البيت آراء وقوى أخرى. اتجه نور الدين إلى الشرق، ودخل في الترتيب، ثم أقر ابن أخيه على الموصل، وأعاد للمدينة موقعاً في الصلة بين ملكه وملك أقرائه.¹²⁴

لم يجعل الإقرار كل الأطراف درجة واحدة في الطاعة. كان للموصل موارد وجيش ورجال يدبرونها، ولها قرب من عالم الخلافة والسلطنة والجزيرة. وفي هذا المجتمع عمل جمال الدين الوزير وزين الدين علي، اللذان رأيناهما في ترتيب الحكم وفي حارم، ثم تبدلت وجوه وبقيت المصالح.

وفي أثناء صلته بالموصل شرع في بناء الجامع الذي حمل اسمه، وتم في السنوات التالية. عرف نور الدين المدينة التي حكمها أبوه وأخوه من خلال مشروع عمراني وديني كذلك، لا من خلال

١٢٤ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث سنتي 565-566هـ، وفاة قطب الدين وترتيب حكم الموصل.

الجيش وحده. وكانت رعاية بناء كهذا سبيلًا إلى تثبيت حضوره في ذاكرة المدينة حتى إذا لم يقيم فيها.¹²⁵

ارتبط المشروع بعمر بن محمد الملاء، رجل عرف بالزهد وله صلة برجال الحكم. يتناول بحث معماري حديث لياسر طباع هذه الرعاية وعلاقتها بالسياسة المحلية، وينبه إلى أن اختيار موضع الجامع ورجاله لا ينفصل عن ترتيب القوى في الموصل. هذا تفسير باحث للوثائق والأخبار، يفيدنا في توسيع السؤال ولا يتحول إلى نية معلومة في صدر نور الدين.¹²⁶

جمع المسجد عبادة وخدمة وموردًا واسم راعٍ يراه الناس. دخل البناء إلى حياة الموصل، واتصلت به مكانة السلطان في مدينة لها رجالها ومصالحها.

وفي جهة الأناضول كان قلب أرسلان صاحب قوة لا تلغيه وحدة الدين. وقع بينه وبين نور الدين توتر، واتصلت المسألة بمدن وحقوق لحكام مجاورين. تقدم نور الدين في سنة 568هـ إلى بعض

١٢٥، ١٢٦ — ياسر طباع، دراسة الجامع النوري؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن خلكان، وفیات الأعيان؛ طباع، افتتاح دراسة الجامع النوري، ص 339؛ الكامل، أخبار الموصل؛ وفیات الأعيان، ترجمة 715.

البلاد، ثم جرت مراسلات انتهت إلى صلح وشروط، وكان من مطالبه المعونة في قتال الصليبيين.¹²⁷

تحفظ هذه الأخبار حداً مهماً في استعمال عبارة «الوحدة». لا تعني أن كل أمير مسلم انضم إلى دولة نور الدين، ولا أن الخلاف معه صار خلافاً مع مقصد الجهاد كله. كانت هناك حقوق ملك وتوسع وتنافس، وكان الخوف من طرف سبباً يجعل الطرف الآخر يطلب الاتفاق. الوحدة التي تمكن من بعض العمل تصنع بين قوى لها مواقع، ولا تنشأ من كونها تشارك اسماً دينياً وحده.

وظهر في هذه العلاقات مليح الأرمني، صاحب سلطة في قيليقية. اتصل بنور الدين، وانتفع بمعونته في منافساته، ثم قاتل قوى بيزنطية. يروي ابن الأثير خبراً عن ظفريه بعسكر الروم وما أرسله إلى نور الدين. لا يدخل هذا في خريطة مبسطة تجعل كل غير مسلم في الجهة نفسها من كل نزاع.¹²⁸

ليس في ذلك أن الفروق الدينية زالت أو أن التحالف كان بغير شروط ومصالح. يثبت أن السياسة العسكرية جرت أحياناً على خصومات محلية تجمع من يختلفون في الدين أمام قوة أخرى.

١٢٧ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث سنة 568هـ، قصد نور الدين بلاد قلع أرسلان وشروط الصلح.

١٢٨ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث سنة 568هـ، ظفر مليح بن ليون بالروم.

احتاج نور الدين أن يرى عالمه كما هو، بأمرائه وطرقهم ومواقعهم، لا كما يبدو في عنوان عام للحرب.

وتذكر كتب التراجم مراسلات مع راشد الدين سنان، صاحب قلاع الإسماعيلية. لكن ابن خلكان نفسه يورد اختلافاً في بعض نسخ رسالة ووجه توجيهها، بما يجعل الاعتماد على ألفاظ التهديد المتبادلة وحدها عسيراً. لذلك يكتفي هذا الكتاب بإثبات أن هذه القوى المجاورة جزء من محيطه، ولا يبني عليها مشهد مناظرة أو انتصار شخصي لا تستقر نسبته.¹²⁹

يمكن للقوة أن تبقى في القلعة سنوات دون أن تظهر في معركة كبرى، وتظل عاملاً في قرار من يحكم بالقرب منها. يحتاج السلطان إلى مراقبة الحدود، وإلى اختيار ما يقاتل وما يؤجل، وإلى فصل ما يستحق تحريك جيش عما يمكن أن يعالجه اتفاق. من يحاول أن يدخل كل نزاع في وقت واحد قد يفقد إمكان أن ينجز أهم عمل عنده.

وهذه العلاقات تكشف كثرة ما حمله نور الدين في آخر حكمه. دمشق وحلب، وصلة الموصل والجزيرة، وحصون الصليبيين، ومصر، وقوى الأناضول، والطرق والمؤسسات داخل البلاد.

١٢٩ — ابن خلكان، وفيات الأعيان؛ ترجمة 715، مراسلات راشد الدين سنان، ج 5 ص 185-187.

ليس اتساع الملك عدّ أسماء إضافية تحت سلطانه؛ هو زيادة فيما يصل إليه من أخبار وطلبات وأخطار، وفيما يحتاج إلى تفويضه لمن يعملون بعيداً.

ومع هذا الاتساع ظل القرار في أمور كبيرة متعلقاً بحضوره. قد يقود جيشاً إلى الشمال، ثم يعود فيهيئ عملاً في الجنوب، وتنتظر المدن ما يقوله في قضية شائكة. ما الذي يبقى من هذه الصلات إذا مرض مرة أخرى ولم يعد إلى المجلس؟ سيأتي الجواب في سنة 569هـ، لا كما يريده أصحاب الأمل، بل كما وقع في حياة الدولة بعد موته.

الفصل الثالث والعشرون آخر عيد

دخل شوال سنة 569هـ، 1174م، ونور الدين في دمشق. يورد ابن كثير أخبار صلاة العيد والاحتفال، ويذكر ختان ابنه الصالح في ذلك اليوم. كان الابن في سن صغيرة، وكانت الدولة في اتساعها، وكانت هناك قوات يستدعى بعضها من الشرق لعمل يهياً له السلطان.¹³⁰

يفسر ابن الأثير هذا الاستعداد بعزمه على دخول مصر وإبعاد صلاح الدين عنها، بعد ما رأى من فتور في التنسيق العسكري. ويحمل هذا التفسير ما تقدم من روايته للخلاف. الذي لا خلاف في عاقبته أن نور الدين لم يخرج إلى مصر؛ أصابه المرض، وتحول انتباه الدولة إلى جسد صاحبها بدل وجهة الجيش.¹³¹

كان المرض في حلقه، وسماه المؤرخون «الخوانيق». لا نثبت بهذا الاسم القديم تشخيصاً طبياً معاصراً مفصلاً. يذكر ابن الأثير، عن طبيب كان يخدمه، أنهم دخلوا عليه في بيت صغير بالقلعة كان يخلو فيه للعبادة، وأن المرض قد اشتد حتى ضعف صوته. رأى

١٣٠ - ابن كثير، البداية والنهاية؛ ترجمة نور الدين في حوادث 569هـ، ص 491-493، أخبار آخر عيد وممضه.

١٣١ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان؛ ابن كثير، البداية والنهاية؛ الكامل، حوادث 569هـ، وفاة نور الدين؛ وفيات الأعيان، ترجمة 715؛ البداية والنهاية ص 492-493.

الطبيب أن تأخر استدعائهم ضيق ما يستطيعون عمله، وطلب الانتقال إلى موضع أوسع.¹³²

أشاروا بالفصد، وهو إخراج الدم على طريقة علاجية في الطب القديم، فلم يقبل. مضى المرض، واشتغل الأطباء بما قدروا عليه، وبقيت هيبة المريض حاضرة في طريقة الوصول إليه.

راجع أمام المرض ما ظن كثيرون أنه باق في سلطان الرجل. انخطط موجودة، والأمراء قرييون، والخزائن يمكن أن تفتح، لكن الصوت لا يقوى كما كان يقوى في مجلس الحكم. ليس في قوة الدولة ما يجعل عمر صاحبها عقداً مضموناً. ما يستطيع إنجازه ينتهي أحياناً قبل أن يعرف القرييون أي عمل سيكون آخر أعماله.

مات يوم الأربعاء الحادي عشر من شوال سنة 569هـ، وقد حكم نحو ثمان وعشرين سنة، منذ مقتل أبيه سنة 541هـ. وكان في أواخر الخمسينات من عمره. صُلي عليه في القلعة، ودُفن أولاً فيها، ثم نُقل إلى تربته في المدرسة التي أنشأها بدمشق.¹³³

لم يمت في فتح القدس ولا في معركة أمام أسوارها. يرد لقب «الشهيد» في ذاكرة المؤرخين عنه، ويربطه ابن كثير بمرضه، وهو

١٣٢، ١٣٣ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان؛ ابن كثير، البداية والنهاية؛ الكامل، حوادث 569هـ، وفاة نور الدين، وفيات الأعيان، ترجمة 715؛ البداية والنهاية ص 492-493.

لقب تكريم شائع في أخبار الرجل. لا نحوله إلى خبر أنه قُتل في الحرب، ولا إلى حكم منا على الغيب. ينتهي عمره في دمشق، والقدس ما تزال في يد الصليبيين.

ورث ابنه الاسم والحق في الحكم، لكن الصبي لم يرث في يوم واحد خبرة أبيه ولا منزلته عند الأمراء. حلف له رجال الدولة، وبقيت الطاعة في الظاهر قائمة في الشام ومصر، وخطب له وضربت السكة باسمه. كانت هذه علامات استمرار مهمة، لكنها لا تعوض شخصاً عرف كيف يتعامل مع رجال أقوياء في بلاد متباعدة.¹³⁴

وفي رثائه جاء الشعراء بما يليق بملك أحبوه. للشعر مكان في معرفة ما شعر به بعض الناس، وفي مقدار الفراغ الذي تركه موته. لكنه لا يخبرنا وحده كيف سارت المدينة في الأسبوع التالي، ولا من قدر على أخذ موقع من ملكه. سنحتاج إلى خبر السياسة بعد الرثاء.

١٣٤ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان؛ حوادث 569هـ، ملك الصالح؛ وفيات الأعيان، ترجمة 715.

دُفن في دمشق التي دخلها أميراً وأقام فيها مؤسساتٍ بقيت بعده.
يترحم عليه من يقرأ سيرته، ويعود إلى عمله: ما الذي بقي من
المدن والرجال والأمانات حين غاب صاحبها؟¹³⁵

ويغيب بموته وجه من وجوه حضور العلماء والقضاة والقادة في
مجلسه. كانوا يعرفون كيف يرفعون الأمر إليه، وكيف يخافون إن
بلغته مظلمة، وكيف يستجيبون حين دعاهم لحرب. أما الآن، فمن
يملك أن يقول الكلمة التي كان يقولها فتجتمع عليها القوى؟ لن
يكون جوابهم واحداً.

لقد سبق له أن نجا من إشاعة الموت، وظهر في نافذة القلعة فرد
الناس عن تحركهم. هذه المرة لا نافذة تعيد الخبر القديم.
سيتصرف الأمراء والأقرباء وصلاح الدين على أساس موته
الحقيقي، وتظهر قيمة ما بناه كما تظهر حدود ما بقي معلقاً على
حضوره.

ترك وراءه عملاً كبيراً لم يكتمل، وناساً انتفعوا به، وخصوصاً
تأثروا بقوته، وابتناً يحتاج إلى حماية، وحلفاء لهم حسابات. فلا
تقف سيرته عند آخر نفس. ما يقع بعده يدخل في معرفة مقدار
أثره، ويفرق بين دوام العمل ودوام البيت الحاكم.

١٣٥ — ابن خلكان، وفيات الأعيان؛ ابن كثير، البداية والنهاية؛ وفيات الأعيان، ترجمة
٧١٥؛ البداية والنهاية ص ٤٩٣، أخبار القبر.

الفصل الرابع والعشرون الدولة بعد صاحبها

تولى الصالح إسماعيل الحكم، وكان في دمشق. تولى تديره رجال من أمراء أبيه، وظهرت بينهم خلافات على من يتصل بالصبي وعلى المكان الذي ينبغي أن يقيم فيه. كان وجوده يمنح الشرعية لمن يقرب منه، وصارت حمايته نفسها موضوعاً يختلف في تفسيره المتنافسون.¹³⁶

أراد بعض رجال حلب أن يأتي إليهم، وخشي من في دمشق أن يفقدوا موضعهم إذا انتقل. وكان سيف الدين غازي، ابن أخي نور الدين وصاحب الموصل، يتحرك في بلاد الجزيرة ويأخذ مواقع كانت في حكم عمه. لم تصبح القرابة بعد الوفاة ضماناً أن تبقى حدود الدولة كما كانت.¹³⁷

أرسل صلاح الدين من مصر التعزية والتهنئة، وأظهر طاعة الصالح، وضرب مالا باسمه. ثم احتج على رجال دمشق بأنهم لا يشاورونه، وقدم نفسه صاحب حق في خدمة ابن مولاه وحماية ما تركه أبوه. يورد ابن الأثير كلامه في رسائل تحمل حجته؛ لا يلزمنا

١٣٦، ١٣٧ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث 569-570هـ، ملك الصالح، وملك سيف الدين البلاد الجزيرة، وملك صلاح الدين دمشق.

أن نعد كل وصف فيها حقيقة محايدة لمجرد أنه جاء في رسالة
سلطانية.¹³⁸

تنقل الصالح إلى حلب، وتبدلت القوة القريبة منه. وقع قبض على رجال، وخاف أمراء دمشق أن يأتيهم الدور، فبحثوا عن قوة يستندون إليها. حاولوا الاتصال بصاحب الموصل، ثم اتصلوا بصلاح الدين. هذا التابع يكشف أن انتقال الحكم لم يكن ميل الناس جميعاً إلى منقذ واحد، بل اختيارات أمراء في ظرف خوف وتنافس.¹³⁹

خرج صلاح الدين من مصر، ودخل دمشق سنة 570هـ، 1174م، في قوة صغيرة نسبياً. لقيه رجالها وقبلوا دخوله، ثم سعى إلى تسلم القلعة. أظهر أنه خادم للصالح، وأنه يأتي لحفظ ملكه. دخلت المدينة التي جمعها نور الدين إلى حلب في حكم رجل آخر، مع بقاء اسم ابنه على الخطبة في ذلك الطور.¹⁴⁰

ولم تدخل حلب معه على هذا الوجه. بقي الصالح فيها، ووجد حوله من يحمي استقلاله، وقاوم أهلها وحكامها محاولات صلاح الدين. انتهى الأمر إلى صدامات واتفاقات، وتغيرت الخريطة في

١٣٨، ١٣٩، ١٤٠ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث 569-570هـ، ملك الصالح، وملك سيف الدين البلاد الجزرية، وملك صلاح الدين دمشق.

السنوات التالية. لا يستطيع عنوان «جمع الشام ومصر» أن يلغي القتال الذي وقع بين قوى مسلمة في الطريق إلى ذلك الجمع.

توفي الصالح سنة 577هـ، 1181م، وهو دون العشرين فيما يذكر ابن خلكان. ثم دخلت حلب في ملك صلاح الدين سنة 579هـ، 1183م، بعد ترتيبات وصراعات لا تقع جميعها في حياة نور الدين. بذلك صار اتصال المراكز، الذي بناه الأب، قائماً مرة أخرى في بيت حكم جديد.¹⁴¹

انتقلت رجال وخبرات وحصون ومؤسسات إلى العهد التالي. أما الولاء للبيت وترتيب الأقرباء فتغيرا في الصراع على الحكم. بقي من عمل نور الدين ما يستطيع القادم أن يستعمله، وفقدت دولته صورتها الأولى.

جاوز أثره سلطان الأسرة. بقي بناء في مدينة يدخلها حاكم آخر، وعلم يحمله من تعلم في عهده، وطريق مهد بعضه لمن يكمل المسير. واجه صلاح الدين معارضة، وقاتل وفاوض حتى أعاد الجمع في ترتيب جديد. وجد قبله رجالاً وقوة وفرصاً هيأها نور الدين، ثم كان عليه أن يعمل بما ورث ويضيف إليه.

١٤١ — ابن خلكان، وفيات الأعيان؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ وفيات الأعيان، ترجمة 715، وفاة الصالح سنة 577هـ؛ الكامل، حوادث 579هـ، انتقال حلب إلى صلاح الدين.

وكانت مؤسسات نور الدين داخل هذا الانتقال جزءاً من ذاكرة المدن. يستطيع المريض أن يدخل المستشفى الذي يحمل اسمه تحت سلطان آخر، ويستطيع الطالب أن يدرس في بناء بدأ في عهده، ويصلي أهل الموصل في الجامع الذي ارتبط به. هذا نوع من البقاء لا يحتاج إلى راية الأب فوق كل قلعة.

تحتاج المؤسسة إلى من يديرها ويحفظ موردها ويصلح بناءها. دخلت أعمال نور الدين في عهود جديدة، وبقيت منها شواهد في ذاكرة المدن وحاجات أهلها.

لقد صار المنبر بعد وفاة صاحبه أثراً مادياً ينتظر مكانه المقصود. حمل اسمه، وبقي في حلب، ورآه من جاء إليها. وبعد سنوات سيأمر صلاح الدين بنقله إلى القدس، فتجتمع في قطعة الخشب ذاكرة رجلين ومرحلتين.

الفصل الخامس والعشرون يصل المنبر

في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة جاء الفتح الذي أُعد له المنبر.

انتصر صلاح الدين في حطين، ثم تابع أخذ مواقع الصليبيين حتى بلغ القدس. كان نور الدين قد مضى على وفاته نحو ثلاث عشرة سنة هجرية، وقطع صلاح الدين في هذه الأعوام طريقاً طويلاً من جمع القوة والحرب.¹⁴²

حاصر المدينة، وانتهت المفاوضات إلى تسليمها في رجب. خرج من سكانها من أدى الفداء، وتعذر الخروج على من عجز عنه، وكان فيها أسرى مسلمون. حمل الفتح فرحاً للمسلمين، وحمل تبدل الحكم تبعاته على أهل المدينة.¹⁴³

وأعيد المسجد الأقصى إلى الصلاة الإسلامية. عندئذ أمر صلاح الدين بإحضار منبر نور الدين من حلب، فوصل إلى القدس ووضع في المسجد الذي صنع له.¹⁴⁴

١٤٢، ١٤٣ — ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ حوادث سنة 583هـ، ذكر فتح البيت المقدس.

١٤٤ — نشر وثيقة منبر نور الدين؛ وثيقة 39، نقش المنبر المؤرخ سنة 564هـ وخبر نقله إلى القدس.

عاد التاريخ المنقوش عليه إلى القصة: أربع وستون وخمسمائة. تسع عشرة سنة تفصل بين صنعه ووصوله؛ أعوام مات فيها صاحبه، وتبدلت فيها القيادة، وواصل رجال آخرون القتال. بقي العمل محفوظاً حتى حلّ يوم الانتفاع به.

وفي النقش أسماء من تولوا صناعته. جمع الأمير للعمل موارده، وأعطاه الصنائع مهارتهم ووقتهم. وحين نقل إلى المسجد الأقصى وصل معهم أثر تلك الأيدي التي أنجزته.¹⁴⁵

هكذا اكتمل مسار المنبر في حياة المدينة: غاية حُددت، وعمل بدأ قبل بلوغها، ثم تمام جاء على يد من واصل الطريق. وفي ذلك حظ نور الدين من هذه الصفحة؛ أعد شيئاً نافعاً للفتح الذي يرجوه، فوجد صلاح الدين ما أعده حاضراً حين جاء الفتح.

خرج نور الدين من الدنيا قبل أن يدخل القدس، وبلغها هذا الأثر من عمله. وإلى جانبه آثار أخرى عرفناها في الطريق: قوة نهضت بعد هزيمة، وقضاء أتيح له أن يسمع الشكوى، ومستشفى ومدرسة ومورد لخدمة الناس. بها تبقى معرفة الرجل أوسع من يوم انتصاره، وأطول من السنوات التي عاشها.

١٤٥ — نشر وثيقة منبر نور الدين؛ وثيقة 39، نقش المنبر المؤرخ سنة 564 هـ وخبر نقله إلى القدس.

الفصل السادس والعشرون الرجل الذي يبقى في الصورة

بدأ الطريق بخاتم أخذه من يد أبيه، وانتهى المنبر إلى القدس بعد موته. بينهما حلب ودمشق ومصر، وجيش انكسر ثم نهض، ومجلس قضاء دخله صاحب السلطان طرفاً، وباب فتحه لمريض ويتيم.

كان لحكمه أثر واسع، وكانت للحرب كلفة واسعة أيضاً. بقيت الرها في السيرة بخرابها، وبقيت أخبار القضاء والمال والإحسان بأفعالها. يحمل التاريخ ما وقع، ومنه تكون معرفة الرجل.

عرف وجهة بعيدة، وبدأ بما بين يديه: يجمع قوة، ويدفع خطراً، ويرعى في مدنه علماً وقضاء وخدمة. لقي في الطريق إخفاقاً وتوتراً، وانتفع من جاء بعده بعمل لم يشهد نهايته.

عمل معه جمال الدين الوزير وزين الدين علي ونجم الدين أيوب وشيركوه وصلاح الدين. لكل واحد منهم خبرته وقراره، ولكل منهم أثر في الطريق؛ ظهر نور الدين بينهم يجمع ويختار ويتحمل اختلاف الرجال الذين تحتاج إليهم دولته.

حفظت أخبار عدله وقائع: دعوى ينظرها قاضٍ، وشكوى تبلغ مجلساً، ومال يتحرى فيه، ومورد يجعل لضعيف. بهذه الأعمال اقترب العدل من حياة الناس الذين حكمهم.

ومات قبل أن يحكم ابنه تدبير الدولة. اضطرب الميراث، وتفرقت بعض القوة، ثم أعيد جمعها في عهد آخر. بقيت للمؤسسات والحصون والرجال قابلية أن تحمل ما بدأه إلى غايته.

في تحريره المال وقبوله القضاء وإصلاحه بعد الهزيمة أعمال يعرف الإنسان معناها في مسؤوليته الصغيرة. يتصل الاقتداء هنا بفعل يمكن البدء به، ثم تحمله القدرة وتحفظه حقوق الناس.

تبين الحواشي والمراجع طرق الأخبار وحدودها. وفي المتن يبقى الرجل بأفعاله، وتبقى معه أسماء من أعانوه وما واجهه من كلفة وعقبات.

كان أثره كبيراً في تهيئة القوة التي انتهت إلى تحرير القدس. مات قبل الفتح، وبقي من عمله ما أكمله غيره، والمنبر أوضح شاهد في خاتمة الطريق.

عرف أين يريد أن يصل، وصنع للغد شيئاً وهو في يومه. يستطيع القارئ أن يبدأ من هذا المعنى: غاية يعرفها، وعمل نافع يشرع فيه، وأمانة يتركها صالحة لمن يأتي بعده.

ويأتي القسم العملي التالي اقتراحاً معاصراً من المؤلف: أعمال
محدودة تصل وقائع السيرة بمسؤولية يملك القارئ مباشرتها.

باب: الأقوال والوصايا المأثورة

حفظت كتب التاريخ كلام نور الدين في رسائله ومجالس قضائه وتدير دولته، إلى جانب كلماته في العبادة ومحاسبة النفس. جمعت هنا الأقوال والأجوبة والرقاع التي أمكن الوصول إلى نصوصها، وأبقيت الرسالة الطويلة وحدة متصلة حين يكون تفريقها مخلاً بحجتها.

المأثور هنا ما نسبته المصادر إلى صاحب السيرة، ولا تعني الإحالة إلى كتاب تصحيح جميع أسانيده. ذكر ما ظهر من اختلاف النسبة أو تنبيه الناقل، وجمعت الصيغ المتقاربة من الخبر الواحد قدر الإمكان. هذا استقصاء موسع في المصادر المبينة، لا دعوى الإحاطة بكل ما روي في جميع الكتب والمخطوطات. ولم تدخل الأحاديث النبوية التي رواها صاحب السيرة في عداد كلامه، ولا ثناء الآخرين عليه.

أمانة المال وحقوق الرعية

١ - جوابه لزوجته حين طلبت زيادة النفقة؛ أقطعها أولاً أملاً كاله
بمحص.

«ليس لي إلا هذا، وجميع ما بيدي أنا فيه خازن للمسلمين لا
أخونهم فيه، ولا أخوض نار جهنم لأجلك.»¹⁴⁶

٢ - قالها للقاضي حين حضر مع رجل ادعى عليه حقاً.

«قد جئت محاكماً، فاسلك معي ما تسلك مع الخصوم.»¹⁴⁷

٣ - تفسيره للحضور إلى مجلس القضاء قبل التنازل عن الحق؛ تمة
الخبر السابق.

«أردت أن أترك له ما يدعيه، إنما خفت أن يكون الباعث
لي على ذلك الكبر والأنفة من الحضور إلى مجلس الشريعة،
فحضرت، ثم وهبته ما يدعيه.»¹⁴⁸

٤ - في موقع الحاكم من الشريعة؛ الشحن هم القائمون بالحفظ
والتنفيذ.

«نحن شحن لها نمضي أوامرها.»¹⁴⁹

١٤٦، ١٤٧، ١٤٨ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، حوادث سنة ٥٦٩هـ، ذكر وفاة
نور الدين محمود بن زنكي، ٣٩٤/٩-٣٩٥.
١٤٩ - أبو شامة، الروضتين، القسم الأول، سيرة نور الدين؛ عن ابن الأثير.

٥ - لما رأى مالا في الخزانة أمر بإعادته إلى أصحابه.

«إن هذا المال ليس لنا، ولا لبيت المال في هذه الجهة

شيء»¹⁵⁰

٦ - حين أعيد المال إلى الخزانة محتجا بأنه له؛ فأصر على رده إلى أصحابه.

«قل لكالم الدين أنت تقدر على حمل هذا، وأما أنا فرقبتي دقيقة لا أطيق حمله، والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى. يعاد قولاً واحداً»¹⁵¹

٧ - لما علم أن شيركوه أمر نوابه بإنصاف خصومهم بعد إنشاء دار العدل.

«الحمد لله الذي جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا»¹⁵²

١٥٠، ١٥١، ١٥٢ - أبو شامة، الروضتين، القسم الأول، سيرة نور الدين، عن ابن الأثير.

الولاية وحسن التدبير

٨ - في تحليل سياسته مع مليح الأرمني، «الفرنج» لفظ المصدر داخل الاقتباس، والمقصود في هذا السياق الصليبيون.

«إنما حملني على استماتته أن بلاده حصينة وعرة المسالك، وقلاعه منيعة وليس لنا إليها طريق، وهو يخرج منها إذا أراد فنال من بلاد الإسلام، فإذا طلب انحجر فيها فلا يقدر عليه. فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئاً من الإقطاع على سبيل التألف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا وساعدنا على
الفرنج»¹⁵³

٩ - في وجوب استكمال عدد الجند وعدتهم.
«نحن كل وقت في النفير، فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء
كاملي العدد والعدد دخل الوهن على الإسلام»¹⁵⁴

١٠ - في اختيار من يتولى عمارة جامع الموصل؛ يبين سبب تربيته رجلاً يثق بأمانته.

«إذا وليت العمل بعض أصحابي من الأجناد والكتاب أعلم أنه يظلم في بعض الأوقات، ولا يفي الجامع بظلم رجل مسلم، وإذا وليت هذا الشيخ غلب على ظني أنه لا يظلم، فإذا ظلم كان الإثم عليه لا علي.»¹⁵⁵

١١ - جوابه حين شكي إليه تصرف القاضي كمال الدين في الأوقاف؛ وهو إقرار بالتصرف المقيد بالمعروف.
«أنا قلدته على أن يتصرف بالمعروف.»¹⁵⁶

العلماء والإنصاف في الحكم على الناس

١٢ - في رده على من قدح في القطب النيسابوري؛ المقصود قلة الخطأ في مقابلة دعوى العصمة.

«ومن المعصوم؟! وإنما الكامل من تعد ذنوبه.»¹⁵⁷

١٥٥، ١٥٦، ١٥٧ - أبو شامة، الروضتين، القسم الأول، سيرة نور الدين؛ عن ابن الأثير.

١٣ - من تمة دفاعه عن القطب النيسابوري؛ خبر عن إنصافه وموازنته بين أعمال الناس، لا حكم قطعي بمغفرة ذنب معين.

«يا هذا إن صح ما تقول فله حسنة تغفر كل زلة تذكرها وهي العلم والدين. وأما أنت وأصحابك ففيكم أضعاف ما ذكرت وليست لكم حسنة تغفرها، ولو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك؛ وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم، أفلا أحتمل سيئة هذا، إن صحت، مع وجود حسنته علي؟! إني والله لا أصدقك فيما تقول، وإن عدت ذكرته أو غيره بسوء لأؤدبناك.»¹⁵⁸

١٤ - في إنفاقه على أهل العلم والدين، وجوابه من رأى أن يكثر عطاياه لهم.

«إن هؤلاء لهم في بيت المال حق، فإذا قنعوا منا ببعضه فلهم المنة علينا.»¹⁵⁹

١٥ - نقله المؤرخ في سياق تصرف السلطان في حماية النظام الديني العام؛ يقرأ في ظرفه التاريخي واختصاص الولاية.

«نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق، والأذى الحاصل منهما قريب، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه وهو الأصل!»¹⁶⁰

الجهاد والاستعداد ودفع العجب

١٦ - مقتطف طويل من كتابه إلى من أنكّر عليه اللعب بالكرة على الخيل؛ أبقى تعليل التدريب متصلاً.

«والله ما يحملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر، إنما نحن في ثغر، العدو قريب منا، وبينما نحن جلوس إذ يقع صوت فنركب في الطلب. ولا يمكننا أيضاً ملازمة الجهاد ليلاً ونهاراً شتاءً وصيفاً إذ لا بد من الراحة للجند. ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماماً لا قدرة لها على إدمان السير في الطلب، ولا معرفة لها بسرعة الانعطاف في الكر والفر في المعركة. فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب فيذهب جمامها وتعود سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب.»¹⁶¹

١٦٠، ١٦١ - أبو شامة، الروضتين، القسم الأول، سيرة نور الدين؛ عن ابن الأثير.

١٧ - قالها في مشهد اللعب بالكرة؛ تشبيهه عارض رواه المصدر في ترجمته.

«قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا، تهرب ممن يطلبها، وتطلب من يهرب منها»¹⁶²

١٨ - نقلها المصدر في أخبار شجاعته؛ ورويت أيضا في سير أعلام النبلاء، ج ٢٠، ص ٥٣٧.

«طالما تعرضت للشهادة فلم أدركها»¹⁶³

١٩ - جوابه حين خشي القطب النيسابوري على المسلمين إن قتل في المعركة؛ وله لفظ قريب في الكامل وسير أعلام النبلاء.

«يا قطب الدين، ومن محمود حتي يقال له هذا؟ قبلي من حفظ البلاد والإسلام، ذلك الله الذي لا إله إلا هو»¹⁶⁴

١٦٢، ١٦٣، ١٦٤ - أبو شامة، الروضتين، القسم الأول، سيرة نور الدين؛ عن ابن الأثير.

قصر الأمل ومحاسبة النفس

٢٠ - قالها بعدما اقترح الأمير محمود بن شونك قص شاربه بعد شهر؛
رويت في أخبار آخر حياته.

«لا تقل هكذا، بل سبحان من يعلم هل نجتمع بعد شهر أم
لا؟»¹⁶⁵

٢١ - قالها مستفهما متعجبا حين قرئ عليه خبر تقلد النبي للسيف؛
فعدل عما اعتاده إلى التقلد، بحسب الرواية.

«كان النبي صلى الله عليه وسلم يتقلد السيف!»¹⁶⁶

٢٢ - قالها لموفق الدين خالد حين أخبره بإبطال المكوس؛ وكان قد
رأى في منامه أنه يغسل ثياب نور الدين.
«هذا تفسير منامك.»¹⁶⁷

٢٣ - من دعائه في مرضه؛ أورد المصدر ندمه على المكوس، ولفظ
البداية والنهاية: «اللهم ارحم العشار المكاس.»
«ارحم العشار المكاس.»¹⁶⁸

١٦٥ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، حوادث سنة ٥٦٩هـ، ذكر وفاة نور الدين
محمود بن زنكي، ٣٩٤/٩-٣٩٥.
١٦٦، ١٦٧، ١٦٨ - أبو شامة، الروضتين، القسم الأول، سيرة نور الدين؛ عن ابن
الأثير.

٢٤ - قالها وهو يطلب من الناس أن يجعلوه في حل مما أخذ من الأموال؛ ينقل معها ندمه وإبطاله المكوس.
«والله ما أخرجناها إلا في جهاد عدو الإسلام»¹⁶⁹

من الرقاع والرسائل وطلب الخير

٢٥ - قالها لمن أشهدهم على وقف حوانيت على سور حمص.
«بالله انظروا أي شيء علمتموه من أبواب البر والخير، دلونا عليه وأشركونا في الثواب»¹⁷⁰

٢٦ - من جوابه لعمر الملاء في شأن معاقبة بعض المفسدين؛ لا يفصل عن سياق الرسالة وقصد الالتزام بالعدل.
«إن الله خلق الخلق وشرع لهم شريعة وهو أعلم بما يصلحهم، ولو علم أن في الشريعة زيادة في المصلحة لشرعها، فما لنا حاجة إلى الزيادة على ما شرعه الله تعالى»¹⁷¹

١٦٩ - أبو شامة، الروضتين، القسم الأول، سيرة نور الدين؛ عن ابن الأثير.
١٧٠ - أبو شامة، الروضتين، القسم الأول، سيرة نور الدين؛ عن ابن العديم.
١٧١ - ابن كثير، البداية والنهاية، حوادث سنة ٥٦٩هـ، ترجمة نور الدين محمود بن زنكي.

٢٧ - قالها لحاجبه حين ضحك من استدعاء القاضي إياه؛ ثم استشهد بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١].

«وما لك تستهزئ بذلك!»¹⁷²

٢٨ - جوابه حين أخبر بأن رجلا كان يسبه ويشتمه؛ الآية من سورة الفرقان: ٦٣، وليست من إنشائه.

«أليس الله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾؟»¹⁷³

خبر اختلفت نسبته

٢٩ - في الرد على من اقترح أخذ مال تاجر مات وترك ولدا صغيرا. «أما الميت فرحمه الله، وأما الولد فأنشأه الله، وأما المال فثمره الله، وأما الساعي فلعهنه الله.»¹⁷⁴

عقب أبو شامة على الخبر بأنه بلغه عن غير نور الدين أيضا؛ لذلك يثبت هنا مع اختلاف النسبة، ولا يجزم بأنه من كلامه.

١٧٢، ١٧٣ - ابن كثير، البداية والنهاية، حوادث سنة ٥٦٩هـ، ترجمة نور الدين محمود بن زنكي.

١٧٤ - أبو شامة، الروضتين، القسم الأول، سيرة نور الدين؛ عن ابن العديم.

أخبار لم تدخل في متن الجمع

خبر أنه لا يتبسم حتى يعلم أينقرن بالحسين أم بين فرعون وهامان؛
حكم الذهبي على هذا الخبر بأنه ليس بصحيح؛ فلا يجعل من الأقوال
الثابتة لنور الدين. المصدر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢٠، ص
٥٣٨-٥٣٩.

الباب الأخير من المعرفة إلى العمل

الفصل السابع والعشرون ستة أعمال يستطيعها القارئ

كل عمل في هذا الفصل اقتراح معاصر من مؤلف الكتاب،
مستنبط من معنى ظهر في السيرة، ومقيد باختلاف الزمان
والموقع. لا يحتاج القارئ إلى سلطة حاكم، ولا يُطلب منه أن يقلد
أدوات حرب قديمة. يختار مجالاً تقع فيه مسؤوليته بالفعل، ثم
يجرب خطوة يعرف كيف يتحقق من أثرها.

العمل الأول رد حق واحد

يقف وراء هذا العمل فصل القضاء. حضر نور الدين مجلساً كان
فيه طرفاً، وقبل أن يبحث القاضي الدعوى. ما يستطيع القارئ
البدء به أصغر من دار عدل: أن يراجع حقاً لشخص يعمل معه أو
يتعامل معه، من غير أن يجعل منزلته سبباً لإسكات صاحبه.

قد يكون الحق مبلغاً تأخر، أو جهداً نُسب إلى غير صاحبه، أو
وعداً أغفل تنفيذه. يبدأ بواقعة واحدة محددة، ويجمع ما يعرفه
عنها، ويسمع من له شأن فيها. إذا ثبت له خطأ، يصلحه بالطريقة

التي ترد الحق، لا بالطريقة التي تحافظ على صورته وحدها. وإذا بقي خلاف، يطلب وساطة أو جهة فصل مناسبة يتفق عليها الطرفان.

يحتاج إلى وقت قصير للبحث، وإلى استعداد للاعتراف، وقد يحتاج إلى مال أو تعديل سجل. لا يبدأ برسالة عامة يقول فيها إنه منصف، بل بإجراء يستطيع صاحب الحق أن يراه. وليس الاعتذار بدلاً من دفع ما يلزم، كما ليس العطاء الزائد طريقة لشراء السكوت عن أصل النزاع.

وعلاوة التقدم أن يتضح ما بقي وما أنجز، وأن يستطيع الطرف الآخر طلب المراجعة بغير خوف. لا نقيس النجاح بأن يرضى كل شخص عن كل قرار، فقد يكون الحق مخالفاً لما يريد. نقيسه بوضوح الوقائع، وعدالة طريق النظر، وتنفيذ ما انتهى إليه.

ومن الحدود الضرورية ألا يتولى القارئ الفصل في نزاع يخصه وحده ثم يعد حكمه عدلاً نهائياً. حين تتضارب المصالح أو يحتاج الأمر إلى اختصاص، تكون قيمة العمل في قبول مراجعة مستقلة، لا في الإصرار على أنه أعرف الناس بنيته.

العمل الثاني فصل الأمانة عن الملك

يقف وراءه فصل المال. قد تكون الأمانة جهازاً للعمل، أو اشتراكاً، أو صندوق جمعية، أو حساب نشاط، أو وقتاً مدفوعاً لخدمة معينة. يبدأ القارئ بسؤال بسيط: ما الذي أملك التصرف فيه لنفسي، وما الذي أديره لمنفعة غيره؟

يكتب قائمة قصيرة بما في عهده، ويحدد لكل شيء صاحبه وغرضه وحدود الإذن فيه. إذا لم يعرف، يسأل الجهة التي عهدت به إليه. ثم يصحح استعمالاً واحداً كان يخلط فيه بين المجالين. قد يكون ذلك فصل مصروف شخصي عن حساب العمل، أو توثيق إذن كان يكتفي فيه بعادة قديمة غير واضحة.

موارده ورقة وحسابات يمكن الوصول إليها، وربما شخص محايد يساعد في المراجعة. أول خطوة لا تحتاج إلى نظام مالي ضخم، تحتاج إلى تسمية أمانة واحدة كانت تختفي في عبارة «هذا عندي». ثم يعود إليها بعد أسبوع، ليرى هل تغير الاستخدام أم بقيت القائمة كلاماً.

علامة التقدم أن تصبح الحركة قابلة للتفسير والتتبع، وأن ينخفض ما يحتاج صاحبه إلى تبرير بعد وقوعه. لا تجعل كثرة الورق غاية، وثيقة صغيرة واضحة خير من سجل طويل لا يعرف أحد كيف يستعمله.

ويحفظ هذا العمل حداً آخر: لا يستخرج القارئ من أخبار المكوس حكماً على كل ضريبة أو رسم في بلده، ولا يتصرف في الأموال العامة باجتهاد فردي يخرق صلاحياته. المقصود أمانته الفعلية، وما أُذن له فيه، والمراجعة التي يحتاج إليها.

العمل الثالث تحويل المساعدة إلى خدمة تستمر

يقف وراءه المستشفى وتعليم الأيتام. يختار القارئ حاجة يعرفها عن قرب: درس تقوية، أو إعارة كتب، أو مساعدة في الوصول إلى خدمة، أو مورد غذائي محدود. يسأل أولاً أصحاب الحاجة عما ينفعهم فعلاً، ولا يبدأ من النشاط الذي يجب أن يعرضه على الناس.

يحدد خدمة واحدة، وعدداً قليلاً من المستفيدين، ومدة أولية واضحة. يسمي من يتولى العمل ومن يتلقى الطلب ومن يراجع النفقة. إذا كان العمل يتصل بالصحة أو المال أو حماية الأطفال، يرجع إلى الجهة والاختصاص المناسبين، ويحفظ المعلومات الشخصية ولا يعرض قصة المستفيد لتزيين مشروعه.

موارده وقت متكرر أو مبلغ صغير معلوم، وشريك يمكن الاعتماد عليه، وطريقة بسيطة لتلقي الطلب. تبدأ التجربة بأسبوعين أو شهر، ثم تراجع. الهدف معرفة هل الخدمة مطلوبة ويمكن دوامها، لا إعلان مشروع كبير قبل أن تتضح تكلفته.

وعلاوة التقدم أن يعرف المستفيد متى يجدها، وأن تكون المواعيد المنفذة أكثر من الوعود، وأن يوجد بديل إذا تعذر حضور الشخص الأول. الخدمة التي يتوقف كل شيء فيها على صاحبه تعيد إليه جميع أعباء اليوم التالي، ولو كانت نيته حسنة.

لا يتجاوز العمل حدود القدرة. إذا لم يستطع الاستمرار، يعلن المدة من البداية، ويهيئ انتقالاً مناسباً، ولا يترك مستفيداً يعتمد على وعد دائم لم يقصده. وقد تكون صدقة واحدة نافعة أصدق من مؤسسة بالاسم لا تملك مورداً لشهرها الثاني.

العمل الرابع الإصلاح بعد خسارة

يقف وراءه ما فعله نور الدين بعد البقيعة من تعويض وتجهيز. في حياة القارئ قد تكون الخسارة مشروعاً تعطل، أو امتحاناً أخفق فيه، أو عملاً تأخر فأضر بشركائه. يبدأ بفصل ما ضاع فعلاً عما يشعر به من خيبة: أداة، أو مال، أو معرفة، أو ثقة، أو وقت.

يكتب ثلاثة أسباب يمكن التحقق منها، ويترك التخمين عن نيات الناس إلى أن يجد عليه دليلاً. ثم يختار أهم نقص يمكن إصلاحه قبل محاولة جديدة. إذا كان النقص مهارة، يجعل لها تدريباً محدداً، وإذا كان أداة، يبحث عن بديل يناسب قدرته؛ وإذا كان وعداً لم يف به، يخبر من تأثروا كيف سيعالج الأمر.

يحتاج إلى سجل للواقعة، ووقت للمراجعة، وربما مشورة من شخص لم يشارك في الخطأ. أول خطوة أن يوقف تكرار السبب الواضح، لا أن يثبت للجميع سريعاً أنه قادر على العودة. وقد يكون أفضل إصلاح تعديل الغاية أو إيقاف مشروع لا يستحق المزيد من موارد الناس.

علامة التقدم تغير ملموس في طريقة المحاولة، لا ارتفاع الحماسة وحدها. يحدد موعد مراجعة ويرى هل انخفض الخطأ، وهل عوض من تأثروا بقدر ما يستطيع. لا يحمل الضعيف خسارة القوي لأنه أسهل من مواجهته.

ولا تجعل قصة البقيعة دعوة إلى مخاطرة جديدة بلا حساب. كان لنور الدين موارد وجيش، وقد لا يملك القارئ مثلهما. الاستفادة من ماثبته تبدأ بإدراك الفروق، وبمعرفة أن الانسحاب المسؤول قد يكون أحياناً حماية لمن ائتمنوه.

العمل الخامس سماع الشريك قبل الأزمة

يقف وراءه صلح سنجار، وما تعطل من تنسيق الشام ومصر. يختار القارئ علاقة عمل يحتاج فيها كل طرف إلى الآخر، ثم يوضح ما ينتظر من كل واحد: الموعد، والنتيجة، وحدود القرار، وطريقة الاعتراض، وما يحدث إن تأخر العمل أو تغيرت الظروف.

يبدأ بلقاء قصير أو رسالة محددة، ويطلب من الشريك أن يشرح ما فهمه وما يستطيع الالتزام به. قد يكشف ذلك فرقاً بين ما يراه أحدهما تفويضاً وما يراه الآخر سبباً لصلاحيته. معرفة الفرق قبل وقوع الأزمة أقل كلفة من تفسير كل تأخر بعد ذلك على أنه سوء نية.

موارده وقت للشريكين ووثيقة قصيرة يمكن الرجوع إليها. أول فعل أن يسميا قراراً واحداً لا يعرفان من يملكه، ويتفقا على طريقة حسمه. وإذا كانت العلاقة أسرية، تحفظ الوثيقة واللغة كرامة أهل البيت ولا تحول كل خدمة إلى محاكمة.

علامة التقدم أن يقل ما يفهم من إشارات صامتة، وأن يمكن الإبلاغ عن التأخر مبكراً. لا يشترط أن يتفقا في كل رأي، بل أن يعرفا كيف يعالجان الخلاف من غير تحوين ولا إلغاء لموقع أحدهما.

ومن الحدود ألا يستعمل القارئ الشراكة ستاراً لتوسيع سلطته على من لا يملك أن يرفضه. القوة متفاوتة في كثير من العلاقات؛ لذلك يحتاج الأضعف إلى مساحة حقيقية للقول، وربما إلى شخص ثالث أو قواعد متفق عليها تحميه.

العمل السادس إعداد شيء ينتفع به من يأتي بعدك

يقف وراءه المنبر الذي وصل بعد وفاة صاحبه، والمؤسسات التي انتفع بها حكم لاحق. يختار القارئ عملاً يمكن أن يفهم ويستخدم بغير حضوره: شرح طريقة، أو فهرس مواد، أو خطة تعليم، أو سجل تعهدات، أو مورد موثق.

يبدأ بسؤال من سيستخدمه: ما المعلومة التي لا تجدها حين يغيب المسؤول؟ ثم يكتبها أو يرتبها، ويجعل موضعها معلوماً لمن يحتاج إليها، ويحفظ حقوق المواد التي يستعملها. لا يجعل التوثيق أسراراً في جهازه ثم يقول إنه هياً العمل للخلف.

موارده ساعة أو ساعات قليلة، ووسيلة حفظ مناسبة، وشخص يجرب استعمال ما أعد. أول خطوة أن يختار إجراء واحداً يتعطل عند غيابه، ويشرح تنفيذه بلغة يستطيع غيره فهمها. يطلب من الآخر أن يجربه، ويرى أين احتاج إلى سؤال.

علامة التقدم أن ينفذ شخص آخر الإجراء من غير أن يتوقف في كل مرحلة عند صاحبه. قد تبقى حاجة إلى اختصاص أو تفويض، فيذكرها بوضوح. ليس كل شيء قابلاً للتفويض لكل شخص، وليس نشر المعلومات الخاصة خدمة للمستقبل.

يحسن صاحب العمل الإعداد، ويسلم ما أنجز واضحاً لمن يأتي بعده. وفي المنبر صورة لهذه القدرة: يبدأ الإنسان فعلاً نافعا اليوم، وقد يبلغ غايته على يد غيره.

الفصل الثامن والعشرون تجربة لأسبوع واحد

لا يبدأ القارئ بالأعمال الستة جميعاً. يختار أكثرها اتصالاً بمسؤوليته، ثم يجعل له موعداً ونتيجة صغيرة. قد تكون معرفة موضع الخطأ أول نتيجة نافعة، إذا كانت المعرفة واضحة وأمكن أن يبنى عليها عمل.

الحالة الأولى فريق تعليم صغير

هذه حالة افتراضية للتوضيح، وليست خبراً تاريخياً. يدير ثلاثة أشخاص درساً مجانياً أسبوعياً لعدد من الطلاب. يعرف أحدهم كل التفاصيل، وإذا غاب تعطل الموعد. يظن الآخران أنه لا يريد تفويضهما، ويظن هو أنهما لا يريدان تحمل المسؤولية.

تبدأ التجربة من العمل الخامس: يتفقون على ما يستطيع كل واحد أن يحمله. يذكر المسؤول الحالي أسماء المهام الفعلية، ثم يسأل شريكه عن وقتيهما بدل أن يوزع عليهما ما يتنى. يتولى أحدهما التواصل مع الأسر، والآخر ترتيب المادة، ويبقى تقديم الدرس لمن يستطيع القيام به.

ثم ينتقلون إلى العمل السادس. يضعون في موضع آمن مشترك ما يلزم من ترتيب الموعد والخطوة والمواد، ويحفظون معلومات الطلاب بما يلائم خصوصيتهم. يجرب أحد الشريكين تهيئة لقاء واحد من هذه المعلومات، ثم يسجل ما احتاج إلى توضيح.

قد يكتشفون أن كل ما يستطيعونه درسان في الشهر، فيعلنون ذلك بدل وعد أسبوعي يفوت كثيراً. إذا وجد الطلاب الموعد معلوماً والعمل قائماً عند غياب فرد، فقد تحسن جزء مهم من الخدمة. لا يحتاج النجاح هنا إلى عدد كبير من المستفيدين؛ يحتاج إلى خدمة تؤدي لمن التزموا لهم بها.

وحين تأتي نفقة، يفصلون مال الدرس عن أموالهم الخاصة، ويوثقون المشتريات والإذن فيها. لا يعالجون شدة الحاجة بأخذ مورد مخصص لشيء آخر من غير مراجعة صاحبه. هكذا تتلاقى الشراكة والتوثيق والأمانة في عمل صغير، من غير أن يحتاج الفريق إلى أن يسمى نفسه مؤسسة كبيرة.

الحالة الثانية مسؤول تأخر في حق عامل

هذه حالة افتراضية ثانية. وعد مسؤول عاملاً بإنهاء مكافأة، ثم تأخر. جاء العامل يطلب حقه، ف شعر المسؤول أن السؤال في وقت ازدحامه اعتراض على مكانته، وأجابه بجملة. بقي أصل الحق بلا معالجة، وازدادت المسافة بينهما.

يبدأ العمل الأول بمعرفة ما تقرر فعلاً. يراجع الاتفاق والموعده والصلاحيه، ولا يفترض أن غضبه دليل على تجاوز العامل. ثم يبين له ما ثبت، ويعتذر عن الحدة، ويحدد إجراءً معلوماً: دفع ما يملكه، أو رفع الطلب إلى الجهة المخولة، أو بيان سبب الخلاف مع طريق للمراجعة.

إذا لم تكن له صلاحية الدفع، لا يصنع وعداً جديداً لا يملك إنفاذه. يخبر العامل بمن يتولى القرار ومتى يحصل على جواب، ثم يتابع في الموعد. وإذا تبين أن وعده الأول كان خارج صلاحيته، يذكر خطأه صراحة ويعمل على إصلاح أثره بقدر الممكن.

لا تنتهي التجربة حين يهدأ صوت العامل. علامتها أن يعرف حقه وحال طلبه، وأن ينجز المسؤول ما التزم به، وأن يعدل طريقته في الوعود التالية. وإذا كان بينهما نزاع لا يستطيعان حسمه، يقبل المسؤول جهة مراجعة عادلة بدل أن يجعل قرب العامل منه شرطاً لسماع حجته.

في العمل الحديث يسلك الحق طريق العقود والنظم والصلاحيات. وتعين قصة القضاء المسؤول على أمر يقدر عليه: يسمع صاحب الحق، ويقبل المراجعة، ويستجيب لما يظهر من الحكم.

بطاقة المراجعة الأسبوعية

يكتب القارئ قبل بداية الأسبوع: اخترت العمل الآتي، لأنه يتصل بهذه الحاجة المحددة. وأول فعل سأقوم به في هذا الموعد. والشخص الذي سأسمعه أو أستعين به هو كذا. وما أحتاج إليه من مورد أو إذن هو كذا. ثم يحدد حدًا لا يجوز أن يتجاوزه، بخصوصية شخص أو مال لا يملك صرفه.

وفي آخر الأسبوع يجيب في جمل قصيرة: ما الذي حدث فعلاً؟ ما الذي بقي وعداً؟ من انتفع، ومن تحمل كلفة لم أنتبه إليها؟ ما المعلومة التي غيرت رأيي؟ ما الشيء الواحد الذي سأعدله في الأسبوع التالي؟

لا يضع درجة لشخصه من عشر، ولا يجعل البطاقة كشفًا لفضائل يتنى أنه يملكها. يكفي أن يسجل واقعة وإجراء. إذا اختار رد حق، يكتب هل رد أو لماذا لم يرد. وإذا اختار خدمة، يكتب كم موعداً أداه بالفعل. وإذا اختار توثيقاً، يكتب هل استطاع غيره استخدامه.

ويحفظ مساحة لما يتعذر. قد تظهر حاجة إلى اختصاص لا يملكه، أو نزاع يحتاج إلى فصل، أو مورد لا يمكن توفيره. عند ذلك يوقف الجزء الذي لا يستطيع القيام به على الوجه المناسب،

وليست كل ما يقدر عليه، ويخبر من يتأثرون بالقرار. التعذر المعلن أقل ضرراً من استمرار وعد لا يعرف أحد أنه انتهى.

وحين يستمر عدة أسابيع، ينظر إلى عادة واحدة: هل صار أيسر عليه سماع المراجعة؟ هل قل اختلاط الأمانات؟ هل بقيت الخدمة حين غاب؟ هل تغيرت المحاولة بعد الخسارة؟ هذه أسئلة أقرب إلى العمل من مقارنة نفسه برجل حكم بلاداً في زمن آخر.

خاتمة

لم ير نور الدين القدس في حكمه. رأى مدناً دخلها، وخصوصاً هزمهم وآخرين هزموه، ومؤسسات بدأها، وأهلاً احتاجوا إليه، ورجالاً خدموه ثم اختلف معهم. حمل غاية كبيرة، وكان عليه في كل سنة أن يعمل في الممكن الذي بين يديه.

وأجمل ما يبقى للقارئ من هذا الطريق أن العمل لا ينتظر كمال صاحبه. يحتاج إلى أمانة تقبل المراجعة، وإلى معرفة تصحح الوهم، وإلى وسيلة تبلغ الغاية بغير إضاعة حقوق الناس. وقد يستعمل غيرك ما أعددت، وقد يغيره، وقد يتركه؛ فتكون مسؤوليتك أن تسلم له شيئاً صالحاً للفهم والعمل.

وصل المنبر بعد صاحبه. أما ما يصل من هذا الكتاب إلى حياة قارئه، فليس صورة الخشب ولا أسماء الحصون، بل فعل يختاره عن معرفة، ويختبره في حق من يعيشون معه.

الملاحق

الملحق الأول خط الزمن

التواريخ الميلادية هنا تقريبية على مستوى السنة. قد يمتد العام الهجري بين عامين ميلاديين، ولذلك لا تُستعمل هذه القائمة لتحويل اليوم والشهر من تقويم إلى آخر.

511 هـ / 1118 م: ولادة محمود بن زنكي، الذي عُرف بنور الدين، في بيت متصل بالخدمة العسكرية والسياسية السلجوقية.

539 هـ / 1144 م: عماد الدين زنكي يأخذ الرها؛ هذا فتح الأب، لا فتح الابن.

541 هـ / 1146 م: مقتل عماد الدين عند قلعة جعبر. نور الدين يصل إلى حلب، وسيف الدين غازي يتولى الموصل. محاولة جوسلين استعادة الرها، ثم تدخل نور الدين وما أعقبه من خراب وأسر.

543 هـ / 1148 م: حصار دمشق في الحملة الصليبية الثانية. مقاومة أهلها وتدمير معين الدين أنز، وحركة سيف الدين ونور الدين إلى حمص؛ تفشل الحملة في أخذ المدينة.

544هـ / 1149م: انتصار إنب ومقتل ريموند صاحب أنطاكية.
وفاة سيف الدين غازي؛ قطب الدين مودود يحكم الموصل.
خلاف سنجار ينتهي بتسوية بين الأخوين.

545هـ وما بعدها / نحو 1150م: هزيمة نور الدين أمام جوسلين ثم أسره، وثناع انتقال حصون في الشمال. لا يُجمع سقوط جميع الحصون في تاريخ يوم واحد.

548هـ / 1153م: سقوط عسقلان في يد الصليبيين، واتساع الخطر على دمشق ومصر.

549هـ / 1154م: دخول نور الدين دمشق في صفر، بعد مراسلات وحصار وتسليم من الباب الشرقي. بداية مرحلة واسعة من العمل المؤسسي في المدينة، ومنها المستشفى النوري.

552هـ / 1157م: زلازل شديدة في الشام؛ حماية الأطراف إلى أن تعاد أسوار مدن متضررة.

554هـ / 1159م: مرض نور الدين وانتشار إشاعة موته؛ تحركات داخل الأسرة والقادة، ثم عودته إلى العمل واسترداد حران.

558هـ / 1163م: هزيمة البقيعة ونجاة نور الدين، ثم تعويض الجيش وإعادة تجهيزه.

559هـ / 1164م: الحملة المصرية الأولى لشيركوه لإعادة شاور.
انتصار حارم وفتح بانياس في الشام؛ الصلح وخروج جيش
شيركوه والصليبيين من مصر.

562هـ / 1167م: الحملة المصرية الثانية؛ معركة البابين، ودخول
الإسكندرية، وحصار صلاح الدين فيها، ثم الصلح والخروج.
564هـ / 1168-1169م: هجوم الصليبيين على مصر، وأخذ
بليس، وإحراق القسطنطينية بأمر شاور. الحملة الثالثة؛ شيركوه
وزيراً، ثم وفاته وتولية صلاح الدين. تاريخ صناعة المنبر الذي يحمل
اسم نور الدين.

565هـ / 1170م: زلازل جديدة. وفاة قطب الدين مودود في
الموصل، ثم تدخل نور الدين في ترتيب حكمها.

566-568هـ / نحو 1170-1172م: بناء الجامع النوري في
الموصل في سياق رعاية نور الدين للمدينة؛ تفتاوت تواريخ البداية
والإتمام في الأخبار والدراسات.

567هـ / 1171م: تغيير الخطبة في مصر إلى الخليفة العباسي،
ووفاة العاضد، وانتهاء الخلافة الفاطمية. توتر في التنسيق العسكري
بين نور الدين وصلاح الدين.

568هـ / 1173م: حملة نور الدين في جهة الأناضول وصلاح مع قلع أرسلان؛ خروج صلاح الدين إلى الكرك ثم عودته، مع وفاة أبيه نجم الدين أيوب.

569هـ / 1174م: وفاة نور الدين في 11 شوال بدمشق؛ تولية الصالح إسماعيل وهو صغير، وظهور تنافس على تدبير ملكه.

570هـ / 1174م: دخول صلاح الدين دمشق بعد دعوة من أمراءها، مع إظهار الطاعة للصالح في ذلك الطور.

577هـ / 1181م: وفاة الصالح إسماعيل في حلب.

579هـ / 1183م: دخول حلب في ملك صلاح الدين.

583هـ / 1187م: حطين ثم أخذ القدس في رجب. نقل منبر نور الدين من حلب إلى المسجد الأقصى.

الملحق الثاني أسماء ومصطلحات

نور الدين محمود: أبو القاسم محمود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر. لا يُبدل اسمه بمحمد اعتماداً على خطأ في نسخة رقية.

عماد الدين زنكي: أبوه، صاحب الموصل وحلب، وأخذ الرها سنة 539هـ. قتل سنة 541هـ عند قلعة جعبر.

سيف الدين غازي الأول: أخو نور الدين، حكم الموصل بعد أبيه وتوفي سنة 544هـ. يختلف عن سيف الدين غازي الثاني، ابن قطب الدين.

قطب الدين مودود: أخو نور الدين، خلف غازي في الموصل. شارك عسكره في وقائع من أهمها حارم.

أمير أميران: أخ أصغر لنور الدين؛ ظهر في أخبار مرضه وحران، ثم شارك في حصار بانياس وفقد إحدى عينيه.

معين الدين أنز: من كبار مدبري دمشق قبل دخول نور الدين، وأبو عصمت الدين خاتون. له دور في مقاومة الحملة الثانية.

مجير الدين أبق: صاحب دمشق قبل سنة 549هـ. خرج منها بعد تسليمها، وانتهى إلى بغداد.

عصمت الدين خاتون: زوجة نور الدين، بنت معين الدين أنز. لا يُنسب إليها خبر زوجة لم يسمها المصدر، ولا أمومة ولد بغير دليل. نجم الدين أيوب: أبو صلاح الدين، من رجال الحكم في دمشق، وأخو شيركوه.

أسد الدين شيركوه: قائد بارز في دولة نور الدين، قاد الحملات المصرية الثلاث، ثم ولي الوزارة في مصر ومات سنة 564هـ. صلاح الدين يوسف: يوسف بن أيوب، ابن أخي شيركوه. ولي الوزارة بعد عمه، ثم حكم مصر والشام، وحرر القدس بعد وفاة نور الدين.

جمال الدين الوزير: وزير الموصل الذي أسهم في تسوية خلاف سنجار، لا يختلط بغيره من الوزراء الذين يحملون اللقب نفسه. زين الدين علي: من كبار قادة عسكر الموصل؛ له عمل ظاهر في ترتيب حكمها وفي معركة حارم.

كمال الدين الشهرزوري: قاض اتصل بنور الدين وشؤون القضاء والأوقاف في دمشق. ترد لأفراد من البيت نفسه أسماء وألقاب متشابهة؛ يرجع في كل خبر إلى نضه.

جوسلين: من حكام إمارة الرها وما بقي من أعمالها. تميزه السيرة من ابنه الذي يرد في أخبار لاحقة.

الصلبيون: يقصد بهم هنا القوى اللاتينية التي أقامت إمارات وممالك في المشرق وخاضت الحروب الصليبية. ويسمى المؤرخون المسلمون في الأخبار المنقولة «الفرنج». ولا يشمل هذا الوصف جميع المسيحيين أو السكان المحليين من غير المسلمين. الروم: يُراد بهم في كثير من هذه الأخبار البيزنطيون، لا الصليبيين اللاتين. قد يتحالف فريق منهم مع قوة لاتينية، ويختلف معها في موضع آخر.

الأتابك: لقب أصله صاحب تربية أو رعاية للأمير، ثم اتصل بقيادات عسكرية وحكام ذوي سلطان فعلي. لا يفهم من أصل الكلمة أن صاحبه بقي معلماً خاصاً بلا حكم.

الإقطاع: ترتيب يمنح مورداً أو حقاً مالياً من ناحية أو أرض لمن يتولى خدمة أو وظيفة، على صور اختلفت في العصور. لا يساوي دائماً ملكية الأرض الخاصة بمعناها الحالي.

دار العدل: مجلس للنظر في المظالم والشكاوى، يتصل بقوة السلطان والقضاء، ولا يماثل بكل تفاصيله مؤسسة دستورية معاصرة.

البيمارستان: المستشفى في اصطلاح ذلك العصر. لا ثبتت الكلمة وحدها مستوى العلاج أو عدد المستفيدين.

الوقف: أصل يحبس لمنفعة محددة ويجعل ريعه لها وفق شروطه.
قيامه لا يغني عن صيانة الأصل وحسن إدارة الريع.

الخطبة والسكة: ذكر صاحب الولاء السياسي في خطبة الجمعة وعلى
النقد؛ علامتان مهمتان من علامات السلطان، وقد تجتمعان مع
استقلال فعلي واسع لمن ينوب عنه.

الأحداث: جماعات حضرية ذات دور محلي في بعض مدن الشام.
لا يقتصر الاسم على العمر الصغير بمعناه الشائع اليوم.

الخوانينق: وصف مرضي قديم لآفة في الحلق. لا يحدد بمفرده
تشخيصاً طبياً حديثاً.

الملحق الثالث قراءة المصادر

يُبنى معظم التسلسل السياسي والعسكري على الكامل في التاريخ لابن الأثير، مع مراجعة ترجمة ابن خلكان، و ترجمة الذهبي، وأخبار ابن كثير. لكل منها قيمة وحدود: ابن الأثير أقرب زمنًا وله صلة بعالم الموصل، وابن خلكان ينقل ويقارن نسخًا، والذهبي يجمع شهادات أقدم، وابن كثير متأخر ينقل ويضم أخبارًا من مصادر سابقة. اشتراكهم في خبر لا يثبت تلقائيًا استقلال طرقة؛ فقد يأخذ بعضهم عن بعض.

وللتفصيل الفني والتاريخ المادي قيمة أخرى. نقش المنبر يثبت اسمًا وتاريخ صناعة وأسماء عاملين، ورحلة ابن جبير تصف ما رآه قبل نقله، ودراسة العمارة تفحص بناء قائمًا وموقعه. لا يقوم النقش مقام سيرة، ولا يقوم خبر سياسي مقام تحليل كامل للبناء. يجمع الكتاب هذه الأنواع فيما يدل عليه كل منها.

وورد اسم التاريخ الباهر لابن الأثير والروضتين لأبي شامة في شبكة المصادر التي رجع إليها المؤرخون. جلب مصور الباهر في البحث، لكن لم تعتمد قراءة آلية غير مقابلة له لإثبات لفظ جديد في المتن. وما نقله ابن كثير عن أبي شامة يذكر بواسطة ابن كثير، ولا يوهم الكتاب أن مصنف أبي شامة كله قرأ مباشرة.

وكذلك خبر رحلة ابن جبير في المنبر استعمل هنا من خلال نشر علمي لنصها مترجماً، لا بوصفه اقتباساً حرفياً من أصل عربي قوئل. والبحث الحديث عن جامع الموصل استعمل في النطاق الذي قرئ منه، لا بوصفه حصراً لجميع الدراسات العمرانية المتعلقة بعهد نور الدين.

تُعلّق الأخبار التي لا تكفي مادتها للجزم، ومن ذلك تعيين أم الصالح، وربط فدية أسير مسمى بتأسيس مستشفى قبل تاريخ أسره، والجزم بباطن نية في خلاف سياسي، وقصص الكشف عن مستقبل الفتح. لا يثبت التعليق أن الخبر كاذب؛ يعني أن الكتاب لم يجد في نطاق فحصه ما يبيح استعماله على وجه اليقين. وتأتي مصادر الحواشي بعد ذلك بالرقم نفسه الذي يرد في المتن. الحاشية أسفل الصفحة مختصرة حتى لا تقطع القراءة، وهذا الملحق يبين المصدر والموضع وما يحتاج إلى تقييد. أرقام الصفحات لا تخلط بين طبعات مختلفة؛ حيث لم تُقابل صفحة مصورة يذكر عنوان الخبر والسنة أو رقم الترجمة بوصفه مرساة قابلة للرجوع.

مصادر الحواشي

ترد الأرقام هنا مطابقة لأرقام الإحالات في المتن. تذكر الإحالة عنوان المصدر وموضع الخبر؛ وبيانات المصادر الجامعة في قائمة المراجع التالية.

1. نشر وثيقة منبر نور الدين. وثيقة 39، نقش المنبر المؤرخ سنة 564هـ وخبر نقله إلى القدس. يوثق النقش صناعة المنبر وتاريخها.

2. الذهبي، سير أعلام النبلاء؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان. ترجمة نور الدين؛ وفي السير نقل شهادة ابن عساكر. الصفات العامة ثناء المؤرخين؛ لا تعني إثبات كل التفصيل عن جميع أيام حياته.

3. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث 558-564هـ، أخبار البقيعة وحارم والحملات المصرية.

4. نشر وثيقة منبر نور الدين. وثيقة 39، نقش المنبر المؤرخ سنة 564هـ وخبر نقله إلى القدس. يوثق النقش صناعة المنبر وتاريخها.

5. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث 549-564هـ، ضم دمشق وحارم ومصر.

6. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 583هـ، ذكر فتح البيت المقدس. فتح القدس من عمل صلاح الدين بعد وفاة نور الدين؛ تقديرات الأعداد في الخبر لا تُعامل كإحصاء حديث.

7. الذهبي، سير أعلام النبلاء؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان. ترجمة نور الدين؛ وفي السير نقل شهادة ابن عساكر. الصفات العامة ثناء المؤرخين؛ لا تعني إثبات كل التفصيل عن جميع أيام حياته.
8. الذهبي، سير أعلام النبلاء؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان. ترجمة نور الدين؛ وفي السير نقل شهادة ابن عساكر. الصفات العامة ثناء المؤرخين؛ لا تعني إثبات كل التفصيل عن جميع أيام حياته.
9. الذهبي، سير أعلام النبلاء؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان. ترجمة نور الدين؛ وفي السير نقل شهادة ابن عساكر. الصفات العامة ثناء المؤرخين؛ لا تعني إثبات كل التفصيل عن جميع أيام حياته.
10. ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان. حوادث سنة 541هـ، ذكر مقتل زنكي وملك ولديه؛ وفيات الأعيان، ترجمة 715. صلاح الدين محمد اليغيساني الوارد في الخبر غير صلاح الدين يوسف بن أيوب.
11. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 544هـ، وفاة سيف الدين وملك قطب الدين وخبر سنجار. جمال الدين الوزير صاحب دور في التسوية؛ لا يختزل الخبر في قرار نور الدين وحده.
12. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 539هـ، فتح الرها؛ وحوادث 541هـ، مقتل زنكي وسيرته. الفتح الأول لعماد الدين زنكي، والثاني تدخل نور الدين بعد محاولة جوسلين الاستعادة.

13. الذهبي، سير أعلام النبلاء؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان. ترجمة نور الدين؛ وفي السير نقل شهادة ابن عساكر. الصفات العامة ثناء المؤرخين؛ لا تعني إثبات كل التفصيل عن جميع أيام حياته.

14. ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان. حوادث سنة 541هـ، ذكر مقتل زنكي وملك ولديه؛ وفيات الأعيان، ترجمة 715. صلاح الدين محمد اليغيساني الوارد في الخبر غير صلاح الدين يوسف بن أيوب.

15. ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان. حوادث سنة 541هـ، ذكر مقتل زنكي وملك ولديه؛ وفيات الأعيان، ترجمة 715. صلاح الدين محمد اليغيساني الوارد في الخبر غير صلاح الدين يوسف بن أيوب.

16. ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان. حوادث سنة 541هـ، ذكر مقتل زنكي وملك ولديه؛ وفيات الأعيان، ترجمة 715. صلاح الدين محمد اليغيساني الوارد في الخبر غير صلاح الدين يوسف بن أيوب.

17. ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان. حوادث سنة 541هـ، ذكر مقتل زنكي وملك ولديه؛ وفيات الأعيان، ترجمة 715. صلاح الدين محمد اليغيساني الوارد في الخبر غير صلاح الدين يوسف بن أيوب.

18. ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان. حوادث سنة 541هـ، ذكر مقتل زنكي وملك ولديه؛ وفيات الأعيان، ترجمة 715. صلاح الدين محمد اليغيساني الوارد في الخبر غير صلاح الدين يوسف بن أيوب.

19. ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان. حوادث سنة 541هـ، ذكر مقتل زنكي وملك ولديه، وفيات الأعيان، ترجمة 715. صلاح الدين محمد البيهقي الوارد في الخبر غير صلاح الدين يوسف بن أيوب.
20. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث 541هـ، ذكر عصيان الرها، ثم أخبار 542هـ. أثبت المؤرخ خراباً وأسراً في الرها. قراءة أسباب الحرب لا تلغي كلفتها على المدنيين. ابن الأثير لم يشهد الواقعة الأولى بنفسه.
21. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 539هـ، فتح الرها؛ وحوادث 541هـ، مقتل زنكي وسيرته. الفتح الأول لعماد الدين زنكي، والثاني تدخل نور الدين بعد محاولة جوسلين الاستعادة.
22. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث 541هـ، ذكر عصيان الرها، ثم أخبار 542هـ. أثبت المؤرخ خراباً وأسراً في الرها. قراءة أسباب الحرب لا تلغي كلفتها على المدنيين. ابن الأثير لم يشهد الواقعة الأولى بنفسه.
23. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث 541هـ، ذكر عصيان الرها، ثم أخبار 542هـ. أثبت المؤرخ خراباً وأسراً في الرها. قراءة أسباب الحرب لا تلغي كلفتها على المدنيين. ابن الأثير لم يشهد الواقعة الأولى بنفسه.
24. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث 541هـ، ذكر عصيان الرها، ثم أخبار 542هـ. أثبت المؤرخ خراباً وأسراً في الرها. قراءة أسباب الحرب لا تلغي كلفتها على المدنيين. ابن الأثير لم يشهد الواقعة الأولى بنفسه.

25. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث 541هـ، ذكر عصيان الرها، ثم أخبار 542هـ. أثبت المؤرخ خراباً وأسراً في الرها. قراءة أسباب الحرب لا تلغي كلفتها على المدنيين. ابن الأثير لم يشهد الواقعة الأولى بنفسه.

26. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 543هـ، ذكر حصر الفرنج دمشق وما فعل سيف الدين غازي. رواية ابن الأثير تبرز المقاومة والمراسلات والمدد؛ لا تنسب دفع الحصار إلى نور الدين وحده، ولا تحسم كل خلاف المصادر في أسبابه.

27. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 543هـ، ذكر حصر الفرنج دمشق وما فعل سيف الدين غازي. رواية ابن الأثير تبرز المقاومة والمراسلات والمدد؛ لا تنسب دفع الحصار إلى نور الدين وحده، ولا تحسم كل خلاف المصادر في أسبابه.

28. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 543هـ، ذكر حصر الفرنج دمشق وما فعل سيف الدين غازي. رواية ابن الأثير تبرز المقاومة والمراسلات والمدد؛ لا تنسب دفع الحصار إلى نور الدين وحده، ولا تحسم كل خلاف المصادر في أسبابه.

29. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 543هـ، ذكر حصر الفرنج دمشق وما فعل سيف الدين غازي. رواية ابن الأثير تبرز المقاومة والمراسلات والمدد؛ لا تنسب دفع الحصار إلى نور الدين وحده، ولا تحسم كل خلاف المصادر في أسبابه.

30. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 543هـ، ذكر حصر الفرنج دمشق وما فعل سيف الدين غازي. رواية ابن الأثير تبرز المقاومة والمراسلات والمدد؛ لا تنسب دفع الحصار إلى نور الدين وحده، ولا تحسم كل خلاف المصادر في أسبابه.

31. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 543هـ، ذكر حصر الفرنج دمشق وما فعل سيف الدين غازي. رواية ابن الأثير تبرز المقاومة والمراسلات والمدد؛ لا تنسب دفع الحصار إلى نور الدين وحده، ولا تحسم كل خلاف المصادر في أسبابه.

32. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 543هـ، ذكر حصر الفرنج دمشق وما فعل سيف الدين غازي. رواية ابن الأثير تبرز المقاومة والمراسلات والمدد؛ لا تنسب دفع الحصار إلى نور الدين وحده، ولا تحسم كل خلاف المصادر في أسبابه.

33. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 543هـ، ذكر حصر الفرنج دمشق وما فعل سيف الدين غازي. رواية ابن الأثير تبرز المقاومة والمراسلات والمدد؛ لا تنسب دفع الحصار إلى نور الدين وحده، ولا تحسم كل خلاف المصادر في أسبابه.

34. ابن كثير، البداية والنهاية. حوادث 569هـ، ترجمة نور الدين، ص 483. عصمت الدين بنت معين الدين أنز. لا ثبت شهرتها أمومة الصالح، ولا تسمية الزوجة في خبر آخر لم يسمها.

35. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 544هـ، قتل صاحب أنطاكية وهزيمة الفرنج. جمع المؤرخ في سياق الخبر إشارة إلى أسر أمير آخر بعد زمن؛ فصل الحدثان ولم ينسب إلى يوم إنب.
36. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 544هـ، قتل صاحب أنطاكية وهزيمة الفرنج. جمع المؤرخ في سياق الخبر إشارة إلى أسر أمير آخر بعد زمن؛ فصل الحدثان ولم ينسب إلى يوم إنب.
37. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. ذكر فتح حصن أفامية وأخبار تجهيز الحصون، في السنوات التالية لإنب.
38. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 544هـ، وفاة سيف الدين وملك قطب الدين وخبر سنجار. جمال الدين الوزير صاحب دور في التسوية؛ لا يختزل الخبر في قرار نور الدين وحده.
39. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 544هـ، وفاة سيف الدين وملك قطب الدين وخبر سنجار. جمال الدين الوزير صاحب دور في التسوية؛ لا يختزل الخبر في قرار نور الدين وحده.
40. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 544هـ، وفاة سيف الدين وملك قطب الدين وخبر سنجار. جمال الدين الوزير صاحب دور في التسوية؛ لا يختزل الخبر في قرار نور الدين وحده.

41. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 545هـ، انهزام نور الدين من جوسلين وأسرهم بعد ذلك. يجمع المؤرخ آثار الأسر وفتوحاً تالية؛ لا يؤرخ لجميع الحصون بيوم واحد.

42. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 545هـ، انهزام نور الدين من جوسلين وأسرهم بعد ذلك. يجمع المؤرخ آثار الأسر وفتوحاً تالية؛ لا يؤرخ لجميع الحصون بيوم واحد.

43. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 548هـ، ذكر ملك الفرنج عسقلان. الخلاف الداخلي سبب يورده المؤرخ، لا تفسير مستقل يحيط بكل أسباب السقوط.

44. ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان. حوادث سنة 549هـ، ذكر ملك نور الدين دمشق؛ وفيات الأعيان، ترجمة 715. أبقيت المناورة السياسية في السرد. اقتصر التاريخ على صفر لاختلاف عرض اليوم في بعض الروايات.

45. ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان. حوادث سنة 549هـ، ذكر ملك نور الدين دمشق؛ وفيات الأعيان، ترجمة 715. أبقيت المناورة السياسية في السرد. اقتصر التاريخ على صفر لاختلاف عرض اليوم في بعض الروايات.

46. ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن خلكان، وفیات الأعيان. حوادث سنة 549هـ، ذكر ملك نور الدين دمشق، وفیات الأعيان، ترجمة 715. أقيمت المناورة السياسية في السرد. اقتصر التاريخ على صفر لاختلاف عرض اليوم في بعض الروايات.

47. ابن كثير، البداية والنهاية. حوادث 549هـ، دخول دمشق، ج 16 ص 370 -371؛ و ترجمة 569هـ ص 480-482.

48. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 549هـ أو التي بعدها، ذكر ملك نور الدين تل باشر. المؤرخ نفسه يتردد بين السنتين؛ لم يُحسم التردد من غير دليل إضافي.

49. ابن كثير، البداية والنهاية؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ. ترجمة نور الدين في حوادث 569هـ؛ البداية والنهاية ص 484-485، والكامل: سيرته وعدله. عدد مجالس المظالم مختلف فيه. لم يحول الخبر إلى إحصاء لجميع الشكاوى أو شهادة بخلو البلاد من الظلم.

50. ابن كثير، البداية والنهاية؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ. ترجمة نور الدين في حوادث 569هـ؛ البداية والنهاية ص 484-485، والكامل: سيرته وعدله. عدد مجالس المظالم مختلف فيه. لم يحول الخبر إلى إحصاء لجميع الشكاوى أو شهادة بخلو البلاد من الظلم.

51. ابن كثير، البداية والنهاية؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ. ترجمة نور الدين في حوادث 569هـ؛ البداية والنهاية ص484-485، والكامل: سيرته وعدله. عدد مجالس المظالم مختلف فيه. لم يحول الخبر إلى إحصاء لجميع الشكاوى أو شهادة بخلو البلاد من الظلم.

52. ابن كثير، البداية والنهاية؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ. ترجمة نور الدين في حوادث 569هـ؛ البداية والنهاية ص484-485، والكامل: سيرته وعدله. عدد مجالس المظالم مختلف فيه. لم يحول الخبر إلى إحصاء لجميع الشكاوى أو شهادة بخلو البلاد من الظلم.

53. ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن كثير، البداية والنهاية. الكامل، حوادث 569هـ وسيرة نور الدين؛ البداية والنهاية ص481-482، والكامل، البقية سنة 558هـ. خبر الزوجة لم يسمها في أصل العرض. أخبار الأموال لا تكفي لإعادة بناء موازنة كاملة أو تنزيل حكم على كل نظام مالي معاصر.

54. ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن كثير، البداية والنهاية. الكامل، حوادث 569هـ وسيرة نور الدين؛ البداية والنهاية ص481-482، والكامل، البقية سنة 558هـ. خبر الزوجة لم يسمها في أصل العرض. أخبار الأموال لا تكفي لإعادة بناء موازنة كاملة أو تنزيل حكم على كل نظام مالي معاصر.

55. ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن كثير، البداية والنهاية. الكامل، حوادث 569هـ وسيرة نور الدين؛ البداية والنهاية ص481-482، والكامل، البقية سنة

558هـ. خبر الزوجة لم يسمها في أصل العرض. أخبار الأموال لا تكفي لإعادة بناء موازنة كاملة أو تنزيل حكم على كل نظام مالي معاصر.

56. ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن كثير، البداية والنهاية. الكامل، حوادث 569هـ وسيرة نور الدين؛ البداية والنهاية ص 481-482؛ والكامل، البقيعة سنة 558هـ. خبر الزوجة لم يسمها في أصل العرض. أخبار الأموال لا تكفي لإعادة بناء موازنة كاملة أو تنزيل حكم على كل نظام مالي معاصر.

57. ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن كثير، البداية والنهاية. الكامل، حوادث 569هـ وسيرة نور الدين؛ البداية والنهاية ص 481-482؛ والكامل، البقيعة سنة 558هـ. خبر الزوجة لم يسمها في أصل العرض. أخبار الأموال لا تكفي لإعادة بناء موازنة كاملة أو تنزيل حكم على كل نظام مالي معاصر.

58. الذهبي، سير أعلام النبلاء؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان. ترجمة نور الدين؛ وفي السير نقل شهادة ابن عساكر. الصفات العامة ثناء المؤرخين؛ لا تعني إثبات كل التفصيل عن جميع أيام حياته.

59. ابن كثير، البداية والنهاية؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان. البداية والنهاية، ترجمة 569هـ ص 481-482 و 486؛ وفيات الأعيان، ترجمة 715. تاريخ تأسيس البيمارستان 549هـ يميز من الأسرى الذين أسروا بعده. خبر الفدية هنا غير معين باسم؛ لذلك لم يُربط ببوهيمند أسير حارم سنة 559هـ.

60. ابن كثير، البداية والنهاية؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان. البداية والنهاية، ترجمة 569هـ ص 481-482 و486؛ وفيات الأعيان، ترجمة 715. تاريخ تأسيس البيمارستان 549هـ يميز من الأسرى الذين أسروا بعده. خبر الفدية هنا غير معين باسم؛ لذلك لم يُربط ببوهيمند أسير حارم سنة 559هـ.

61. ابن كثير، البداية والنهاية؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان. البداية والنهاية، ترجمة 569هـ ص 481-482 و486؛ وفيات الأعيان، ترجمة 715. تاريخ تأسيس البيمارستان 549هـ يميز من الأسرى الذين أسروا بعده. خبر الفدية هنا غير معين باسم؛ لذلك لم يُربط ببوهيمند أسير حارم سنة 559هـ.

62. ابن كثير، البداية والنهاية؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان. البداية والنهاية، ترجمة 569هـ ص 481-482 و486؛ وفيات الأعيان، ترجمة 715. تاريخ تأسيس البيمارستان 549هـ يميز من الأسرى الذين أسروا بعده. خبر الفدية هنا غير معين باسم؛ لذلك لم يُربط ببوهيمند أسير حارم سنة 559هـ.

63. ابن كثير، البداية والنهاية؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان. البداية والنهاية، ترجمة 569هـ ص 481-482 و486؛ وفيات الأعيان، ترجمة 715. تاريخ تأسيس البيمارستان 549هـ يميز من الأسرى الذين أسروا بعده. خبر الفدية هنا غير معين باسم؛ لذلك لم يُربط ببوهيمند أسير حارم سنة 559هـ.

64. ابن كثير، البداية والنهاية؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء. ترجمة نور الدين في المصادر الثلاثة؛ البداية والنهاية ص 482-487. دار

الحديث من أوائل المؤسسات المتخصصة؛ لم يُنْ أثرها على الجزم بالأسبقية المطلقة. أخبار المذاهب والشعائر لا تجعل كل السكان رأياً واحداً.

65. الذهبي، سير أعلام النبلاء؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان. ترجمة نور الدين؛ وفي السير نقل شهادة ابن عساكر. الصفات العامة ثناء المؤرخين؛ لا تعني إثبات كل التفصيل عن جميع أيام حياته.

66. ابن كثير، البداية والنهاية؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء. ترجمة نور الدين في المصادر الثلاثة؛ البداية والنهاية ص 482-487. دار الحديث من أوائل المؤسسات المتخصصة؛ لم يُنْ أثرها على الجزم بالأسبقية المطلقة. أخبار المذاهب والشعائر لا تجعل كل السكان رأياً واحداً.

67. ابن كثير، البداية والنهاية؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء. ترجمة نور الدين في المصادر الثلاثة؛ البداية والنهاية ص 482-487. دار الحديث من أوائل المؤسسات المتخصصة؛ لم يُنْ أثرها على الجزم بالأسبقية المطلقة. أخبار المذاهب والشعائر لا تجعل كل السكان رأياً واحداً.

68. ابن كثير، البداية والنهاية؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء. ترجمة نور الدين في المصادر الثلاثة؛ البداية والنهاية ص 482-487. دار الحديث من أوائل المؤسسات المتخصصة؛ لم يُنْ أثرها على الجزم بالأسبقية المطلقة. أخبار المذاهب والشعائر لا تجعل كل السكان رأياً واحداً.

69. ابن كثير، البداية والنهاية؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء. ترجمة نور الدين في المصادر الثلاثة؛ البداية والنهاية ص 482-487. دار الحديث من أوائل المؤسسات المتخصصة؛ لم يُنْ أثراً على الجزم بالأسبقية المطلقة. أخبار المذاهب والشعائر لا تجعل كل السكان رأياً واحداً.

70. ابن كثير، البداية والنهاية. حوادث 569هـ، ترجمة نور الدين، ص 483. عصمت الدين بنت معين الدين أنز. لا ثبت شهرتها أمومة الصالح، ولا تسمية الزوجة في خبر آخر لم يسمها.

71. ابن كثير، البداية والنهاية. حوادث 569هـ، ترجمة نور الدين، ص 483. عصمت الدين بنت معين الدين أنز. لا ثبت شهرتها أمومة الصالح، ولا تسمية الزوجة في خبر آخر لم يسمها.

72. النعمي، الدارس في تاريخ المدارس. ج 1 ص 385، المدرسة الخاتونية البرانية، تمييز خاتون بنت أنز من زمرد خاتون. حُذِف ربط غير متحقق لرحلة حج عصمت الدين، وحفظ خبر مدرستها وخانقاهها بوساطة النعمي.

73. ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان. حوادث 569هـ، ملك الصالح؛ وفيات الأعيان، ترجمة 715. العمر المذكور نحو إحدى عشرة سنة؛ لم تُعين أمه بغير دليل.

74. الذهبي، سير أعلام النبلاء؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان. ترجمة نور الدين؛ وفي السير نقل شهادة ابن عساكر. الصفات العامة ثناء المؤرخين؛ لا تعني إثبات كل التفصيل عن جميع أيام حياته.

75. ابن كثير، البداية والنهاية؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ. البداية والنهاية، ترجمة نور الدين ص 485-486؛ الكامل، سيرته سنة 569هـ. الجواب الديني لا يحول تعريض القائد نفسه للخطر إلى قاعدة واجبة لكل مسؤول.

76. الذهبي، سير أعلام النبلاء؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان. ترجمة نور الدين؛ وفي السير نقل شهادة ابن عساكر. الصفات العامة ثناء المؤرخين؛ لا تعني إثبات كل التفصيل عن جميع أيام حياته.

77. ابن كثير، البداية والنهاية. ترجمة نور الدين، ص 482-487؛ اللعب بالكرة ومجلسه وخبر حمل السيف. الأخبار وقائع وعادات مروية، لم تجمع في يوم واحد، ولم يتحول تقليد هيئة عسكرية إلى ترجيح فقهي شامل.

78. ابن كثير، البداية والنهاية. ترجمة نور الدين، ص 482-487؛ اللعب بالكرة ومجلسه وخبر حمل السيف. الأخبار وقائع وعادات مروية، لم تجمع في يوم واحد، ولم يتحول تقليد هيئة عسكرية إلى ترجيح فقهي شامل.

79. ابن كثير، البداية والنهاية. ترجمة نور الدين، ص 482-487؛ اللعب بالكرة ومجلسه وخبر حمل السيف. الأخبار وقائع وعادات مروية، لم تجمع في يوم واحد، ولم يتحول تقليد هيئة عسكرية إلى ترجيح فقهي شامل.

80. ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن كثير، البداية والنهاية. الكامل، حوادث 567هـ، الحمام الهوادي؛ البداية والنهاية، ص 486-487.

81. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 552هـ، ذكر الزلازل بالشام وملك حصن شيزر. خبر معلم حماة صورة مروية للفاجعة، لا إحصاء لجميع الأسر. انتقال شيزر وقع في سياق كارثة.

82. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 552هـ، ذكر الزلازل بالشام وملك حصن شيزر. خبر معلم حماة صورة مروية للفاجعة، لا إحصاء لجميع الأسر. انتقال شيزر وقع في سياق كارثة.

83. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 552هـ، ذكر الزلازل بالشام وملك حصن شيزر. خبر معلم حماة صورة مروية للفاجعة، لا إحصاء لجميع الأسر. انتقال شيزر وقع في سياق كارثة.

84. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 552هـ، ذكر الزلازل بالشام وملك حصن شيزر. خبر معلم حماة صورة مروية للفاجعة، لا إحصاء لجميع الأسر. انتقال شيزر وقع في سياق كارثة.

85. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 565هـ، ذكر الزلزلة وما فعلته بالشام.

86. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 554هـ، أخذ حران من نور الدين وعودها إليه. حركة شيركوه وتوجيه نجم الدين أيوب في رواية ابن الأثير، أبقيت الوجه السياسي ولم تختزل في طاعة مثالية.

87. ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان. الكامل، حوادث 558هـ، انهزام نور الدين من الفرنج؛ وفيات الأعيان، ترجمة 715. بحيرة قَدَس قرب حمص غير القدس. اسم الرجل الذي قطع قيد الفرس لم يُعرف في النص المفحوص. الدعاء لا يستبدل التجهيز، والحقوق المالية لا تختزل في وعظ عام.

88. ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان. الكامل، حوادث 558هـ، انهزام نور الدين من الفرنج؛ وفيات الأعيان، ترجمة 715. بحيرة قَدَس قرب حمص غير القدس. اسم الرجل الذي قطع قيد الفرس لم يُعرف في النص المفحوص. الدعاء لا يستبدل التجهيز، والحقوق المالية لا تختزل في وعظ عام.

89. ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان. الكامل، حوادث 558هـ، انهزام نور الدين من الفرنج؛ وفيات الأعيان، ترجمة 715. بحيرة قَدَس قرب حمص غير القدس. اسم الرجل الذي قطع قيد الفرس لم يُعرف في النص المفحوص. الدعاء لا يستبدل التجهيز، والحقوق المالية لا تختزل في وعظ عام.

90. ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان. الكامل، حوادث 558هـ، انهزام نور الدين من الفرنج؛ وفيات الأعيان، ترجمة 715. بحيرة قدس قرب حمص غير القدس. اسم الرجل الذي قطع قيد الفرس لم يُعرف في النص المفحوص. الدعاء لا يستبدل التجهيز، والحقوق المالية لا تختزل في وعظ عام.

91. ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان. الكامل، حوادث 558هـ، انهزام نور الدين من الفرنج؛ وفيات الأعيان، ترجمة 715. بحيرة قدس قرب حمص غير القدس. اسم الرجل الذي قطع قيد الفرس لم يُعرف في النص المفحوص. الدعاء لا يستبدل التجهيز، والحقوق المالية لا تختزل في وعظ عام.

92. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 559هـ، هزيمة الفرنج وفتح حارم، ثم أخذ بانياس. حيلة التراجع وردت بصيغة «قيل». عدد القتلى تقدير مروي. دور عسكر الموصل وسائر الشركاء ظاهر، والغارات على المدنيين لم تُخف.

93. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 559هـ، هزيمة الفرنج وفتح حارم، ثم أخذ بانياس. حيلة التراجع وردت بصيغة «قيل». عدد القتلى تقدير مروي. دور عسكر الموصل وسائر الشركاء ظاهر، والغارات على المدنيين لم تُخف.

94. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 559هـ، هزيمة الفرنج وفتح حارم، ثم أخذ بانياس. حيلة التراجع وردت بصيغة «قيل». عدد القتلى تقدير مروي. دور عسكر الموصل وسائر الشركاء ظاهر، والغارات على المدنيين لم تُخف.

95. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 559هـ، هزيمة الفرنج وفتح حارم، ثم أخذ بانياس. حيلة التراجع وردت بصيغة «قيل». عدد القتلى تقدير مروي. دور عسكر الموصل وسائر الشركاء ظاهر، والغارات على المدنيين لم تُخف.

96. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 559هـ، هزيمة الفرنج وفتح حارم، ثم أخذ بانياس. حيلة التراجع وردت بصيغة «قيل». عدد القتلى تقدير مروي. دور عسكر الموصل وسائر الشركاء ظاهر، والغارات على المدنيين لم تُخف.

97. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 559هـ، هزيمة الفرنج وفتح حارم، ثم أخذ بانياس. حيلة التراجع وردت بصيغة «قيل». عدد القتلى تقدير مروي. دور عسكر الموصل وسائر الشركاء ظاهر، والغارات على المدنيين لم تُخف.

98. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 559هـ، مسير شيركوه وعساكر نور الدين إلى مصر وعودهم. الحملة الأولى انتهت بالخروج؛ لا توصف بأنها ملك مستقر لمصر.

99. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 559هـ، مسير شيركوه وعساكر نور الدين إلى مصر وعودهم. الحملة الأولى انتهت بالخروج؛ لا توصف بأنها ملك مستقر لمصر.

100. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 559هـ، مسير شيركوه وعساكر نور الدين إلى مصر وعودهم. الحملة الأولى انتهت بالخروج؛ لا توصف بأنها ملك مستقر لمصر.

101. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 559هـ، مسير شيركوه وعساكر نور الدين إلى مصر وعودهم. الحملة الأولى انتهت بالخروج؛ لا توصف بأنها ملك مستقر لمصر.
102. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث 564هـ، الحملة الثالثة، ثم ذكر ملك صلاح الدين مصر. خبر تردد صلاح الدين منقول بواسطة قريب منه؛ لا يُزاد عليه حوار من إنشاء المؤلف.
103. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 562هـ، ذكر عود أسد الدين شيركوه ومعركة البابين. ترتيب الخطة في هذه الرواية أوضح من تفسير التراجع يوم حارم؛ لم يُسوِّ بين درجتي النقل.
104. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 562هـ، ذكر عود أسد الدين شيركوه ومعركة البابين. ترتيب الخطة في هذه الرواية أوضح من تفسير التراجع يوم حارم؛ لم يُسوِّ بين درجتي النقل.
105. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 562هـ، ذكر عود أسد الدين شيركوه ومعركة البابين. ترتيب الخطة في هذه الرواية أوضح من تفسير التراجع يوم حارم؛ لم يُسوِّ بين درجتي النقل.
106. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 562هـ، ملك شيركوه الإسكندرية وعوده إلى الشام. الرجوع والنفوذ الفرنجي اللاحق في القاهرة جزء من العاقبة، لا يحجبه نصر البابين.

107. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 562هـ، ملك شيركوه الإسكندرية وعوده إلى الشام. الرجوع والنفوذ الفرنجي اللاحق في القاهرة جزء من العاقبة، لا يحجبه نصر البابين.
108. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 564هـ، مسير الفرنج إلى مصر، وإحراق الفسطاط، واستغاثة العاضد، ومقتل شاور. قرار الحريق فُسر عسكرياً مع إبقاء أذى السكان. مقتل شاور واقعة عنف سياسي، لا محاكمة قضائية أعيد بناؤها من التخمين.
109. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 564هـ، مسير الفرنج إلى مصر، وإحراق الفسطاط، واستغاثة العاضد، ومقتل شاور. قرار الحريق فُسر عسكرياً مع إبقاء أذى السكان. مقتل شاور واقعة عنف سياسي، لا محاكمة قضائية أعيد بناؤها من التخمين.
110. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 564هـ، مسير الفرنج إلى مصر، وإحراق الفسطاط، واستغاثة العاضد، ومقتل شاور. قرار الحريق فُسر عسكرياً مع إبقاء أذى السكان. مقتل شاور واقعة عنف سياسي، لا محاكمة قضائية أعيد بناؤها من التخمين.
111. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 564هـ، الحملة الثالثة، ثم ذكر ملك صلاح الدين مصر. خبر تردد صلاح الدين منقول بواسطة قريب منه؛ لا يُزاد عليه حوار من إنشاء المؤلف.

112. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 564هـ، مسير الفرنج إلى مصر، وإحراق الفسطاط، واستغاثة العاضد، ومقتل شاور. قرار الحريق فُسر عسكرياً مع إبقاء أذى السكان. مقتل شاور واقعة عنف سياسي، لا محاكمة قضائية أعيد بناؤها من التخمين.

113. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 564هـ، وفاة شيركوه وملك صلاح الدين مصر. وردت أخطاء رقمية في بعض تعيينات اليوم؛ اقتصر المتن على الشهر والسنة. تنافس الأمراء عند تولية صلاح الدين باق في العرض.

114. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 564هـ، وفاة شيركوه وملك صلاح الدين مصر. وردت أخطاء رقمية في بعض تعيينات اليوم؛ اقتصر المتن على الشهر والسنة. تنافس الأمراء عند تولية صلاح الدين باق في العرض.

115. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 567هـ، إقامة الخطبة العباسية بمصر وانقراض الدولة الفاطمية. تفسير الدافع يُنسب إلى ابن الأثير؛ انتقال الولاء السياسي لا يثبت تبدل اعتقاد كل السكان في يوم واحد.

116. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 567هـ، إقامة الخطبة العباسية بمصر وانقراض الدولة الفاطمية. تفسير الدافع يُنسب إلى ابن الأثير؛ انتقال الولاء السياسي لا يثبت تبدل اعتقاد كل السكان في يوم واحد.

117. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 567هـ، إقامة الخطبة العباسية بمصر وانقراض الدولة الفاطمية. تفسير الدافع يُنسب إلى ابن الأثير؛ انتقال الولاء السياسي لا يثبت تبدل اعتقاد كل السكان في يوم واحد.

118. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 567هـ، إقامة الخطبة العباسية بمصر وانقراض الدولة الفاطمية. تفسير الدافع يُنسب إلى ابن الأثير؛ انتقال الولاء السياسي لا يثبت تبدل اعتقاد كل السكان في يوم واحد.

119. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 567هـ، الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين. الحديث الخاص بتفسير ورواية، لا مشاهدة للمؤلف. لا يثبت كل باطن نية بدرجة وقوع الحركة العسكرية.

120. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 567هـ، الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين. الحديث الخاص بتفسير ورواية، لا مشاهدة للمؤلف. لا يثبت كل باطن نية بدرجة وقوع الحركة العسكرية.

121. بهاء الدين ابن شداد، النوادر السلطانية؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ. النوادر السلطانية، المقدمة وأوائل القسم الأول؛ الكامل، حوادث 567-569هـ. استعملت مقدمة ابن شداد لإظهار قربته من صلاح الدين وطبيعة سيرته، لا لإثبات أنها تنفي تفاصيل كل خبر في الكامل.

122. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 567هـ، الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين. الحديث الخاص تفسير ورواية، لا مشاهدة للمؤلف. لا يثبت كل باطن نية بدرجة وقوع الحركة العسكرية.

123. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 568هـ، رحيل صلاح الدين إلى الكرك وعوده، ووفاة نجم الدين أيوب. بقي مرض الأب ووفاته واقعتين مستقلتين من تفسير ابن الأثير للرجوع.

124. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنتي 565-566هـ، وفاة قطب الدين وترتيب حكم الموصل.

125. ياسر طباع، دراسة الجامع النوري؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان. طباع، افتتاح دراسة الجامع النوري، ص 339؛ الكامل، أخبار الموصل؛ وفيات الأعيان، ترجمة 715. الدراسة الحديثة تقدم سؤالاً سياسياً ومعمارياً؛ لا ثبت نية باطنة، ولم يدع الكتاب قراءة جميع صفحاتها.

126. ياسر طباع، دراسة الجامع النوري؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان. طباع، افتتاح دراسة الجامع النوري، ص 339؛ الكامل، أخبار الموصل؛ وفيات الأعيان، ترجمة 715. الدراسة الحديثة تقدم سؤالاً سياسياً ومعمارياً؛ لا ثبت نية باطنة، ولم يدع الكتاب قراءة جميع صفحاتها.

127. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 568هـ، قصد نور الدين بلاد قليج أرسلان وشروط الصلح.

128. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 568هـ، ظفر مليح بن ليون بالروم. تحالف سياسي في ظرفه، لا قاعدة تلغي الفروق الدينية أو تجعل كل المسيحيين جهة واحدة.
129. ابن خلكان، وفيات الأعيان. ترجمة 715، مراسلات راشد الدين سنان، ج 5 ص 185-187. أورد ابن خلكان اختلاف النسخ في الخطاب؛ لم يُنشأ منه حوار متيقن أو استنتاج حاسم.
130. ابن كثير، البداية والنهاية. ترجمة نور الدين في حوادث 569هـ، ص 491-493، أخبار آخر عيد ومرضه.
131. ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان؛ ابن كثير، البداية والنهاية. الكامل، حوادث 569هـ، وفاة نور الدين؛ وفيات الأعيان، ترجمة 715؛ البداية والنهاية ص 492-493. تفاصيل الطبيب من رواية ابن الأثير. وصف المرض القديم لا يثبت تشخيصاً حديثاً، والفصد ليس توصية علاجية في الكتاب.
132. ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان؛ ابن كثير، البداية والنهاية. الكامل، حوادث 569هـ، وفاة نور الدين؛ وفيات الأعيان، ترجمة 715؛ البداية والنهاية ص 492-493. تفاصيل الطبيب من رواية ابن الأثير. وصف المرض القديم لا يثبت تشخيصاً حديثاً، والفصد ليس توصية علاجية في الكتاب.

133. ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان؛ ابن كثير، البداية والنهاية. الكامل، حوادث 569هـ، وفاة نور الدين؛ وفيات الأعيان، ترجمة 715؛ البداية والنهاية ص 492-493. تفاصيل الطبيب من رواية ابن الأثير. وصف المرض القديم لا يثبت تشخيصاً حديثاً، والفصد ليس توصية علاجية في الكتاب.

134. ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان. حوادث 569هـ، ملك الصالح؛ وفيات الأعيان، ترجمة 715. العمر المذكور نحو إحدى عشرة سنة؛ لم تُعين أمه بغير دليل.

135. ابن خلكان، وفيات الأعيان؛ ابن كثير، البداية والنهاية. وفيات الأعيان، ترجمة 715؛ البداية والنهاية ص 493، أخبار القبر. فصل نقل تجربة شخصية عن إثبات فضل شرعي مخصوص، ولم يوص الكتاب بالطلب من الميت أو اتخاذ التجربة دليلاً مستقلاً.

136. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث 569-570هـ، ملك الصالح، وملك سيف الدين البلاد الجزرية، وملك صلاح الدين دمشق. رسائل صلاح الدين حجة صاحبها السياسية، لا وثيقة تثبت كل دعاواه على أنها رواية محايدة.

137. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث 569-570هـ، ملك الصالح، وملك سيف الدين البلاد الجزرية، وملك صلاح الدين دمشق. رسائل صلاح الدين حجة صاحبها السياسية، لا وثيقة تثبت كل دعاواه على أنها رواية محايدة.

138. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث 569-570هـ، ملك الصالح، وملك سيف الدين البلاد الجزرية، وملك صلاح الدين دمشق. رسائل صلاح الدين حجة صاحبها السياسية، لا وثيقة تثبت كل دعاواه على أنها رواية محايدة.

139. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث 569-570هـ، ملك الصالح، وملك سيف الدين البلاد الجزرية، وملك صلاح الدين دمشق. رسائل صلاح الدين حجة صاحبها السياسية، لا وثيقة تثبت كل دعاواه على أنها رواية محايدة.

140. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث 569-570هـ، ملك الصالح، وملك سيف الدين البلاد الجزرية، وملك صلاح الدين دمشق. رسائل صلاح الدين حجة صاحبها السياسية، لا وثيقة تثبت كل دعاواه على أنها رواية محايدة.

141. ابن خلكان، وفيات الأعيان؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ. وفيات الأعيان، ترجمة 715، وفاة الصالح سنة 577هـ؛ الكامل، حوادث 579هـ، انتقال حلب إلى صلاح الدين.

142. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 583هـ، ذكر فتح البيت المقدس. فتح القدس من عمل صلاح الدين بعد وفاة نور الدين؛ تقديرات الأعداد في الخبر لا تُعامل كإحصاء حديث.

143. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنة 583هـ، ذكر فتح البيت المقدس. فتح القدس من عمل صلاح الدين بعد وفاة نور الدين؛ تقديرات الأعداد في الخبر لا تُعامل كإحصاء حديث.

144. نشر وثيقة منبر نور الدين. وثيقة 39، نقش المنبر المؤرخ سنة 564هـ وخبر نقله إلى القدس. يوثق النقش صناعة المنبر وتاريخها.

145. نشر وثيقة منبر نور الدين. وثيقة 39، نقش المنبر المؤرخ سنة 564هـ وخبر نقله إلى القدس. يوثق النقش صناعة المنبر وتاريخها.

المراجع المعتمدة

ابن الأثير، الكامل في التاريخ

عز الدين علي بن محمد ابن الأثير، الكامل في التاريخ. النسخة الرقمية الموسومة بتحقيق عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1415 هـ. اعتمدت عناوين الحوادث وسنواتها مرساة، ولم تقابل علامات صفحات الملف كلها على مصور الطبعة.

ابن خلكان، وفيات الأعيان

أحمد بن محمد ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. ترجمة 715، الملك العادل نور الدين، ج5، علامات الصفحات 183-188 في النص الرقي. المقصود بالنطاق مرساة النسخة الرقمية، لا دعوى مقابلة جميع الصفحات على صورة الطبعة.

ابن كثير، البداية والنهاية

إسماعيل بن عمر ابن كثير، البداية والنهاية، ترجمة نور الدين ضمن حوادث سنة 569 هـ، ج16، ص480-493 في ترقيم العرض الإلكتروني. وفي الحوادث المفردة يذكر موضع السنة. بعض الأخبار منقول بواسطة ابن الأثير وأبي شامة؛ لا تعد الوساطة طريقاً مستقلاً بغير فحص.

الذهبي، سير أعلام النبلاء

محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، ترجمة نور الدين، ج20، ص531-539، في العرض الإلكتروني. يشمل ما نقله عن ابن عساكر وغيره؛ تذكر الوساطة حين تُستعمل شهادة المعاصر.

نشر وثيقة منبر نور الدين

،Pays d'Islam et monde latin، Presses universitaires de Lyon

الوثيقة 39، Le minbar de Nûr al-Dîn, transporté d'Alep à

Jérusalem par Saladin، ص132-134. نشر يجمع نقش المنبر ووصف ابن جبير وخبر عماد الدين بترجمات وإحالات. استعملت الترجمة المنشورة للمعنى، ولم يُنقل لفظ عربي عنها على أنه الأصل.

راغب الطباخ، إعلام النبلاء

محمد راغب الطباخ، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، ج2، ص140 في العرض الإلكتروني. استعملت مناقشته للأخبار المختلفة المتعلقة بالمنبر، مع إبقاء اختلافها وعدم دمجها في رواية واحدة.

ياسر طباخ، دراسة الجامع النوري

Yasser Tabbaa, The Mosque of Nûr al-Dîn in Mosul, 1170-

1172, Annales islamologiques 36 (2002). نطاق القراءة المباشرة المعتمد

هنا: افتتاح الدراسة، ص339، وإحالاته إلى الروضتين؛ لا توهم الإحالة قراءة المقال كله أو اعتماد جميع نتائجه.

النعمي، الدارس في تاريخ المدارس

عبد القادر النعمي، الدارس في تاريخ المدارس، فصل المدرسة الخاتونية البرانية، ج 1 ص 385 في العرض الإلكتروني. استعملت تمييزه خاتون بنت أنز من زمرد خاتون، ونقله وجود مدرسة وخانقاه للأولى؛ لم ينسب حج الثانية إلى الأولى.

بهاء الدين ابن شداد، النوادر السلطانية

بهاء الدين يوسف بن رافع ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، 1964، وفق بيانات الملف الرقي. استعملت المقدمة وأوائل القسم الأول في نشأة صلاح الدين وصفاته وطبيعة صلة المؤلف به، ولم تستعمل لتوثيق جميع تفصيل الخلاف مع نور الدين.

لم تُدرج قوائم طويلة من كتب لم تُقرأ مادتها على أنها مصادر تحقيق. التراث الأصلي يفصل عن حقوق الطباعات والنشر الرقي؛ لم تُنقل حواشي المحققين ولا كُمل من نصوص قواعد البيانات، وكانت الإفادة في هذا الكتاب بصياغة جديدة مع إحالات إلى مواضع الأخبار.